الفصل السادس

الأ
مصطلح التصوف

يعتبر الوحى الإسلامى الممثل فى الكتاب والسنة هو النبع الصافى لجميع الأصول الإسلامية ، وقد جعله الله عز وجل فى منزلة الماء الذى ينزل من السماء ، فيطهرُ الأرضَ ويذهبُ الزبدَ جفاء ، أو كجودة المعادن فى الأصالة والنقاء ، ونفع الناس ودوام البقاء ، كما قال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ [الرعد/17] .

وإذا كانت العلوم الإسلامية قد فاضت من هذا النبع الصافى ، فإن أصالة كل علم ونقاء معدنَه وما فيه من نفع للإنسانية ، يقاس بمقدار أصوله الممتدة وجذوره الراسخة فى الكتاب والسنة ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ [الرعد/17] .

وأول ما يطالب به أصحاب كل نوع من أنواع العلوم الإسلامية ، أو كل طريقة أو تجربة أو مذهب ينتسب إلى الإسلام ، البحث عن الرخصة التى أهلتهم للخوض فى هذا المجال ،

لأن الرسول استعاذ من العلم الذى لا ينفع فمن حديث زيد بن أرقم قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله يقول ، ثم ذكر من دعائه : " اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها " [1] .

---

1. أخرجه مسلم فى كتاب ذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (2722) 4/2088 .

أو يمكن القول بتعبير آخر مطالبة أصحاب العلوم المختلفة بالبحث عن أصالة علمهم ، وإظهار الأصول التى يعتمد عليها من الكتاب والسنة ، فمن البديهى أن العلوم الإسلامية كعلوم القرآن والحديث والفقه والمواريث والتوحيد واللغة وغير ذلك من أنواع العلوم ، لم تظهر بصورتها المتميزة فى عصر النبوة أو الخلافة الرشيدة ، إنما ظهرت بعد ذلك بفترة ، ولكن هذه العلوم قائمة على أصول قرآنية أو نبوية تمنحها شرف الانتساب ورخصة الإنشاء وجواز التوسع فيها ، حتى تصل إلى ما يمكن من الكمال ، فعلوم القرآن المختلفة كضوابط التلاوة ، وتنوع القرءات ، وتفسير القرآن ، وفهم الناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول ، يمكن أن ترد جميعا إلى حديث عثمان بن عفان ، فقد روى عن

رسول الله أنه قال : " إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه " [1] وفى رواية أخرى : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " [2] .

فيصح للمشتغلين بعلوم القرآن أن يحتجوا على أصالة علمهم ، وشرف نسبته بمثل هذه الأحاديث كما أن الرسول دعا إلى البحث فى القرآن ، ليكون القول فيه عن علم وفهم ، وحذر من الخوض فيه بالرأى وحده ، وجعل المتعلم المعلم من خيرة الأمة وأفضلها ، كل هذا يضاف إلى ما ورد فى القرآن الكريم من تكليف بذلك كقوله تعالى : وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا [المزمل/4] ، وقوله عز وجل : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [القمر/17] وقوله : أَفَلا

---

1. أخرجه البخارى فى كتاب فضائل القرآن (5028) 8/692 .

2. الموضع السابق (5027) 8/92 .

يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [محمد/24] ، فهذه الآيات وأمثالها تدل دلالة صريحة على أصالة هذا العلم ونقاء معدنه .

ويحق للمشتغلين بعلوم الحديث رواية ودراية ، المعنين بدراسة العلل والأسانيد ومعرفة الرجال ووصفهم بالجرح أو التعديل ، أن يستندوا فى رد الحديث وعلومه إلى لفظ وارد فى السنة ، يحمل الدلالة على معنى

التثبت في النقل والتحذير من الكذب على رسول اللّه ، وإتاحة الجهود اللازمة لوضع الضوابط الضرورية التى تحقق تلك الغاية ، كما فى حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله قال : " حدثوا عني ولا حرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار " [1] ، فلفظ : (حدثوا) ، فيه جواز النسبة إلى علم الحديث ، ورخصة إنشائه ، وبذل الجهد للتوسع فيه ، حتى يصل إلى الكمال الممكن ، وقال أنس بن مالك : " إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثا كثيرا أن رسول الله قال : من تعمد علي كذبا فليتبوأ مقعده من النار " [2] ، وهو ينبه بذلك على ضرورة الاحتياط فى الحديث عنه من احتمال الخطأ ، لأنه لا يُظن فى صحابى جليل الشأن كأنس بن مالك ، أن يكذب على رسول الله ، وإنما يدعوا نفسه والآخرين ، إلى أن يكون الحديث عن النبى مضبوطا منقولا كما نطق به .

وكما وجدنا أصولا قرآنية أو نبوية لعلوم القرآن والحديث ، يمكن أن يجد

---

1. أخرجه مسلم فى الزهد (3004) 4/2298 ، وابن ماجه فى المقدمة (37) 1/14 .
2. أخرجه البخارى فى العلم (108) 1/243 ، ومسلم فى المقدمة (2) 1/10 .

المشتغلون بالفقه والفرائض والمواريث والتوحيد واللغة ، أصولا قرآنية لنسبة علومهم ، والمبررات الداعية لإنشائها ، وإتاحة الجهود اللازمة للتوسع فيها حتى تصل إلى الكمال الضروري فى وضع الضوابط لكل باب ، فنجد نسبتة الفقه ، والدعوة إلى تعلمه ونقله إلى الناس بما يلزمه من ضوابط تحقق ذلك ، فى قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة/122] .

فقوله تعالى :﴿ لِيَتَفَقَّهُوا ﴾ بنى عليه اصطلاح الفقه ، وكذلك ما ورد فى حديث معاوية بن أبى سفان ، قال رسول الله : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، والله المعطي وأنا القاسم " [1] .

وعلم الفرائض أو المواريث له أصول قرآنية ونبوية ، تحض على تعلمه وحفظ أحكامه واستقصاء أصوله من الكتاب والسنة ، كقوله تعالى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ [النساء/7] ، أو قوله : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ﴾ [النساء/176] .

فقوله تعالى : (مفروضا) ، (يرثها) ، تعطى أصالة النسبة لعلم الفرائض والمواريث ، وتتيح مشروعية بذل الجهود وتضافرها من أجله ، وكذلك ما

---

1. أخرجه البخارى فى كتاب فرض الخمس (3116) 6/52 ، ومسلم فى كتاب الزكاة (1037) 2/718 .

رواه أَبو أُمَامَةَ الْبَاهِلِي قَال : سمعت رسول الله يقول في خطبته عام حجة الوداع : " إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه ، فلا وصية لوارث " [1] وقوله عن عبد الله بن عباس : " ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر " [2] .

وعلم التوحيد أيضا ، له أصول قرآنية ونبوية منصوص علي لفظه فيها ، كما روى عبد الله بن عباس ، أن النبي لما بعث معاذ بن جبل إلى نحو أهل اليمن ، قال له : " إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم ، إلى أن يوحدوا الله تعالى ، فإذا عرفوا ذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ... الحديث " [3] ، فقوله : " فليكن أول ما تدعوهم ، إلى أن يوحدوا الله تعالى " ، يدل على أن علم التوحيد ، هو أصل الدين وأول العلوم التى يبدأ بها الداعى دعوته ، كما أنه يمثل له المحصلة

المرجوة لكونه الغاية من دعوة النبوة ، قال تعالى :

﴿ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم/52] ، وقوله سبحانه :

---

1. أخرجه الترمذى فى الوصايا (2120) ، وقال الألبانى : صحيح 4/433 ، والنسائى فى الوصايا (3641) 6/47 ، وأبو داود فى الوصايا (2870) 3/114 .
2. أخرجه البخارى فى كتاب الفرائض (6354) 12/1 6 ، ومسلم فى كتاب الفرائض (1615) 3/1233 .
3. أخرجه البخارى فى التوحيد (7372) 1/3ص359 ، ومسلم فى الإيمان (19) .

﴿ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ [الحج/34] ، وما يقال في العلوم السابقة يقال أيضا فى علم اللغة وحسن التعبير والبيان ، فلأهل اللغة المشتغلين بضوابط الكلمة ووضع القواعد التى تحقق استقامة اللغة وعدم اعوجاجها ، أن يستندوا إلى القرآن والسنة فى نسبة علمهم وتأصيل مبناه ، ورده إلى أصول شرعية كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل/103] ، وقال الإمام البخارى رحمه الله : "نزل القرآن بلسان قريش والعرب ، وقول الله تعالى : ﴿ قُرْآنًا

عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف/2] ، وقوله : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء/195] " [1] وقد بين رسول اللَّه أنه أعطى جوامع الكلم وحسن البيان ، فعن أبى هريرة أن رسول الله قال : " بعثت بجوامع الكلم " [2] ، فعلم اللغة ضرورة مفروضة لفهم القرآن والسنة ، لا سيما أن كل ما ورد عن النبى ﷺ ، فيه كمال الفصاحة وروعة البلاغة اللغوية ، التى تُظهر جوامع الكلم فى قوله ﷺ ، وهكذا يمكن بالبحث والتتبع أن نتعرف على الأصول القرآنية والنبوية لكل علم إسلامى نافع للإنسانية فى الدنيا والآخرة .

وإذا عدنا إلى التصوف وعلومه ، فالسؤال الضرورى الذى يطرح نفسه فى هذا الموضع ، هل اهتم الصوفية بالبحث عن الأصول القرآنية والنبويه لعلومهم ؟ وهل التصوف له أصل فى الكتاب والسنة يعتمد عليه ؟ .

---

1. انظر فتح البارى 8/625 .
2. أخرجه البخارى فى الجهاد (2977) 6/149 ، ومسلم فى المساجد (523) .

وينبغى أن نتعرف أولا على أمرين ضرورين قبل الخوض فى تفاصيل الإجابة :

الأمر الأول : ماهيته التصوف وحقيقة ؟

الأمر والثانى : الأصول التى يرد إليها الصوفية مصطلح التصوف ؟

. حقيقة التصوف الإسلامى :

لم يعد هناك شك فى القول بأن التصوف فى مرحلته الأولى ، كان معبرا عن نزعة الزهد والتوكل على الله ، من قبل الراغبين فى الخلاص من فتن الحياه وإن كانت أفعالهم تتسم بنوع من المبالغة إلى حد كبير .

إن الباحث فى التراث الصوفى ، يجد أغلب العلوم الموروثة عن أوائل الصوفية ، تدور حول وصف سلوك طائفة من المسلمين ، أدت بهم بعض الدوافع إلى إذلال النفس ومحو أوصافها ، والزهد في الحياة بأنواعها قربة منهم إلى اللّه ، مع مراعاتهم أداء العبادات على النحو المشروع بحرص واحتياط وتعامل مع الأحكام بدرجة واحدة ، لا فرق عندهم بين فرض ونفل ، فأمر الله ملزم ولا يسع الصوفى تركة ، سواء كان على سبيل الندب والاستحباب أو على سبيل الوجوب والإلزام ، كما رأينا ذلك فى مرحلة التصوف الأولى البسيط والمركب .

ويمكن للباحث أن يجد بداية التصوف ، المعبر عن إذلال النفس وقمعها والمجاهدة فى محو أوصافها ، والزهد في الحياة بأنواعها ، يجده مسطورا فى كتاب الصدق أو الطريق

إلى اللَّه لأبى سعيد الخراز (ت:277هـ) ، وفى تراث الحارث بن أسد المحاسبى (ت: 243هـ) ، لا سيما كتابه الرعاية لحقوق اللَّه ، وفى تراث سهل بن عبد اللَّه التسترى (ت: 283هـ) ، وآداب المريدين للحكيم بن على الترمذى (ت:320هـ) ، وغيرهم ممن كتبوا فى التصوف أو كتب عنهم ، غير أنهم من غير تعمد ، لا يشيرون فى كتاباتهم إلى مصطلح التصوف ، وإنما يذكرون مصطلح المريد وآداب المريدين والزهد والصدق والتوكل ، والرعاية لحقوق اللَّه ومحاسبة النفس ، وما شابه ذلك من ألفاظ وتعبيرات [1] .

كما يجد الباحث التصوف ، وقد أصبح قريبا من الفكر المنظم إلى حد ما مشروحا مسطرا عند أبى نصر السراج الطوسى (ت: 378هـ) ، فى كتابه اللمع فى التصوف ، وأبى بكر محمد الكلاباذى (ت:380هـ) ، صاحب التعرف لمذهب أهل التصوف ، وأبى طالب المكى (ت:386هـ) ، فى كتابه قوت القلوب ، والهجويرى (ت:465هـ) ، صاحب كشف المحجوب ، كما نجد الترقى فى طريق التصوف ، بارزا فى ترتيب المقامات والأحوال ، عند أبى القاسم عبد الكريم القشيرى (ت: 465 هـ) ، صاحب الرسالة القشيرية ، وما خلفه من تراث كبير فيها ، وكذلك عند أبحامد

الغزالى (ت:505هـ) فى كتابه إحياء علوم الدين ، والسهروردى (ت:632هـ) صاحب عوارف المعارف ، غير أنهم جميعا أظهروا عَلَمِيَّة التصوف ، وأنه اصطلاح يخصهم ومذهب يستقلون به دون سائر الناس ، فحاولوا جاهدين أن يضعوا حدا للتصوف ، يتميز باستقلالية خاصة عن بقية العلوم ويعرفون به ، فنقلوا عن

1. انظر مدخل إلى التصوف الإسلامى للدكتور التفتازانى ص95 وانظر أيضا :

الأوائل بعض العبارات الجامعة فى حد التصوف ، تدل فى مجملها إما على كمال التوحيد فى العبادة وعلو الإيمان ، وإما على الأخلاق الفاضلة والخلق العظيم الذى اتصف به رسول الله :

[1- **فمن الأول :** نجد عبارات كثيرة ومتكررة ، تدل فى مجملها على أداء العبودية وتوحيد الله فى أبهى صوره المرجوة التى دعا إليها الإسلام ، كقول ذى النون المصرى (ت: 245هـ) : (الصوفية قوم آثروا الله تعالى عن كل شئ فآثرهم الله عن كل شئ) [(1)] ، ويناظره قول الجنيد بن محمد ، سيد الطائفة فى عصره (ت:297هـ) : (التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به) [(2)] .

وكذلك أيضا قول أبي بكر الشبلى (ت:334هـ) فى حد الصوفى وتعريفه : (هو من انقطع عن الخلق واتصل بالحق) [3] ، والمعنى نفسه نجده لأبى القاسم المقرئ الرازى (ت:366هـ) : (التصوف استقامة الأحوال مع الحق) [4] .

وهذه العبارات وأمثالها ، تدل جميعها على معنى جامع يعبر عن قرب العبد من ربه ، من خلال حفظه لعبوديته ، وتوكله عليه واستعانته به ، حتى يصل إلى مرضاته ومحبته ، وعندها يتولاه بحفظه ورعايته ، فيحفظ عليه بدنه فى حركته وسكنته ، فيسمع بسمع الله ، ويرى بنور الله ، ويمشى فى طاعة الله فيحي بالله ولله ، ميتا عن كل ما سواه ، فهذه التعريفات فى الحقيقة معان

---

1. الرسالة 2/555 .
2. السابق 2/551 .
3. السابق 2/554 .
4. طبقات الصوفية ص511 .

جامعة للتعبير عن الطريق الموصل إلى الصدق فى الإيمان ، وأداء العبوديه على وجه الإحسان ، فلا فرق بين هذه العبارات وما ورد فى حديث أبى هريرة عن النبى ، عن رب العزة قال : " وما تقرب إلي عبدي بشيء ، أحب إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي

يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه " [1] .

[2- **ومن الثانى** : عبارات كثيرة ومتكررة ، تدل فى مجملها على الأخلاق الفاضلة التى اتصف بها النبى ، فالخلق العظيم يمثل فى مجموعه الصورة المثلى التى أرادها الله من عباده ، حيث اختار لهم الحسن من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنه ، وقبح ما يقابلها من الأضاد ، فقال سبحانه تعالى فى وصف نبيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم/4] ، وقال أَنَس بن مالكٍ :" كان النبي أحسن الناس خلقا " [2] ، ومن حديث عبد الله بن عمرو قال رسول اللَّه : " إن من أخيركم أحسنكم خلقا " [3] ، وسأل حكيم بن أفلح عائشة رضى الله عنها : " يا أم المؤمنين ، أنبئيني عن خلق رسول الله ؟ ، قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ ، قلت : بلى ، قالت : فإن خلق نبي الله

---

1. أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق (6502) 11/348 .

2. أخرجه البخارى فى كتاب الأدب برقم (6203)/10 598 ، ومسلم فى كتاب الأدب برقم (2150) 3/1692 .

3. أخرجه البخارى فى الموضع السابق برقم (6029) 10/466 .

 كان القرآن ، قال حكيم : فهممت أن أقوم ، ولا أسأل أحدا عن شيء حتى أموت " [1] .

كل هذه المعانى الخلقية الدالة على شمولية التزام المسلم بمنهج الله ، عبر عنها كثير من أوائل الصوفية بمصطلح التصوف ، فجعلوه معبرا عن حسن الخلق ودعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، فروى عن أبى الحسين النورى (ت:295هـ) أنه قال : (ليس التصوف رسوما ولا علوما ، ولكنه أخلاق) [2] ، وعن أبى محمد الجريرى (ت:311هـ) ، قال : (التصوف ، هو الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى) [3] ، ومثله لأبى بكر محمد بن على الكتانى (ت: 322هـ) : (التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق ، فقد زاد عليك فى التصوف) [4] ولأبى محمد المرتعش (ت:328هـ) : (التصوف حسن الخلق) [5] ، رغبة منه أن يكون التصوف معبرا عن جماع البر المشار إليه فى حديث النواس بن سمعان الأنصاري قال : " سألت رسول الله عن البر والإثم ؟ فقال : " البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس " [6] .

---

1. أخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها

(746) 1/512 ، والنسائى فى كتاب قيام الليل وتطوع النهار (1601) 3/199 ، وأبو داود (1342) 2/40 .

2. كشف المحجوب ص52 ، طبقات الصوفية ص 167. 3. اللمع ص45 .

4. السابق ص52 . 5. الرسالة 2/495 ، كشف المحجوب ص48 .

6. أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب (2553) 4/1980 .

وسواء عبرت تلك التعريفات الصوفية عن توحيد الله وعبادته فى أبهى صوره المرجوة ، أو دلت على الأخلاق الفاضلة التى اتصف بها النبى ، إلا أنها تدل على رغبة أكيدة عند قائليها ، أن يكون التصوف معنى شاملا للالتزام الصحيح بالإسلام ، وفى أعلى درجاته الممكنة ، كما عبر عن ذلك تصريحا أبو القاسم النصرباذى (ت:367هـ) ، فقال : (أصل التصوف ، ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم حرمات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق وحسن صحبة الرفقاء ، والقيام بخدمتهم ، واستعمال الأخلاق الجميلة ، والمداومة على الأوراد ، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات ، وما ضل أحد فى هذا الطريق إلا بفساد الابتداء فإن فساد الابتداء يؤثر فى الانتهاء) [1] ، وهنا بدا اعتراض أو تساؤل يتوجه إلى الصوفية فى محورين :

الأول : أن الإسلام لم يسم تصوفا ومن ثم لا بد من تبرير مقبول لتسميتهم أخلاق الإسلام وأمور الإيمان بالتصوف ، كما أن المعترض لو أنكر التسمية فلن ينكر الواقع ، إذ أصبح التصوف علما علي كم كبير من الصوفية ، لهم كيانهم واصطلاحاتهم رموزهم وألفاظهم ، وأنهم عرفوا عند الناس بصبغة الزهد فى الحياة ، وهيئة ملبسهم الداعية إلى ذلك ، والاهتمام البالغ فى كثير من العبادات ، كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأغلب الأنواع الأخرى من الأحكام .

الثانى : أن التصوف إن كان معبرا عن الإسلام وبلوغ العبد حقيقة الإيمان

---

1. طبقات الصوفية ص488 .

فسوف يقف المنهج الإسلامى حائلا للمبالغة فى العبادة ، والمطالبة بالدليل على كل قول أو فعل يستحدثه الصوفية فى تجربتهم الإيمانية ، لا سيما وقد نهى النبى عن الغلو والتشدد ، والابتداع فى الدين ، وتبرأ من ذلك على الملأ فمن حديث أنس بن مالك قال : " جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادة النبي ؟ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ قال :

أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله إليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس منى " [1] .

فالنبى لو سمح لهؤلاء بفعلهم ، وبارك للناس اجتهادهم ، لظهر التصوف فى عهد النبوة ، بدليل شرعى مقبول ، ومن ثم بات الناس يخوضون فى رد التصوف إلى أصول إسلامية مقبولة ، سواء كانوا من أبناء الصوفية أو من غيرهم ، فالتصوف باعتباره طريقة وتجربة ومذهبا لعدد كبير من المسلمين أصبح علما عليهم وشعارا ، يحتاج إلى فهم اصطلاحاته ، وفك رموزه وألفاظه إضافة إلى أنه قد ظهر لدى الصوفية ، نوع من المخالفات المحدثة فى وقت مبكر إما بدافع المبالغة فى الزهد والعبادة ، أو تأثير بعض الأفكار الغريبة عن البيئة الإسلامية كقول الحلاج بالحلول والاتحاد ، تلك المخالفات كانت مثارا لإنكار

---

1. البخارى فى النكاح (5063) 9/5 ، ومسلم فى النكاح (1401) 2/1020 .

أهل العلم من الطوائف الأخرى ، لا سيما أهل الفقه والحديث ، كما أنه لا ينبغى فى الأصل

مخالفة الكتاب والسنة أو الانحراف عن منهجه تحت أى دعوة وإن بنيت على إخلاص السريرة وحسن النية ، فجميع العلوم الإسلامية قامت على خدمة الكتاب والسنة ، وتعمل فى إطار توجيهه وهدايته ، ومن هنا التفتت الأنظار إلى تحديد موقف واضح للتصوف وتأصيل نسبته ومشروعيته .

الأصول التى رد إليها الصوفية مصطلح التصوف :

اختلف الناس فى نسبة التصوف اختلافا شديدا ، ولا زالوا بين طرفين يتردد بينهما مؤشر الأراء :

[1- الطرف الأول ينكر أصالة التصوف جملة وتفصيلا ، ويقول ببدعيته محتجا بأن عصر النبوة لا تصوف فيه ، ولم يعرف عن واحد من أصحاب النبى أنه كان متصوفا ، كما أن القرآن والسنة فيهما من الحياة الروحية والأخلاق الكريمة ما يغنى عن التصوف وعلومه ، وتارة يرده إلى أصل هندى وأخرى إلى مصدرى فارسى ، وثالثة إلى أصول يونانية أو نصرانية [(1)] .

[2- الطرف الثانى مؤيد داعى يؤكد أن سيد الصوفية وأسوتهم هو رسول اللّه ويجعله على رأس طبقاتهم ، ثم خيار الصحابة والتابعين لهم ، ويحاول جاهدا أن يرد التصوف

إلى نسبة محمودة أو تبرير معقول ، فتارة ينسبه إلى الصوف ، وأخرى إلى الصفاء ، وثالثة إلى أهل الصفة ، ورابعة إلى الصف الأول .

---

1. انظر الحياة الروحية فى الإسلام ، للدكتور مصطفى حلمى ص79:40 .

وآخرون يؤكدون أنه علم وهو اسم ظهر بلا اشتقاق أو غيره [1] ، والصوفية أنفسهم مختلفون فى تأصيل نسبة التصوف ، وإيجاد أصل قرآنى أو نبوى يستندون إليه فى بناء مذهبم ، أو ما يباشرونه من تجربة فى سلوك الطريق كما هو ميسور فى العلوم الأخرى .

ففى الوقت الذى يرده إلى الصوف السراج الطوسى [2] ، ويشاركه فى ذلك أبو بكر الكلاباذى [3] ، والسهروردى البغدادى [4] ، يصف غيرهم تلك الردة جهلا بالتصوف ، حتى قال أحدهم معبرا عن ذلك :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا : جهلا وظنوه مأخوذا من الصوف

ولست أ نحل هذا الإسم غير فتى : صافى فصوفى حتى سمى الصوفى [5]

وفى المقابل لهذين الرأيين نجد أبا القاسم القشيرى [6] ويشاركه الهجويرى [7] يميلان إلى أن الكلمة لا تخضع للاشتقاقات اللغوية

المعروفة ، إذ أن الصوفية من الرفعة بحيث لا يكون لها أصل تشتق منه ، يقول الهجويرى : (يؤكد البعض

1. انظر التصوف فى الإسلام وأهم الاعتراضات الواردة عليه ، للدكتور عبد اللطيف محمد العبد طبعة دار الثقافة العربية سنة 1407هـ ، 1986م ص13: 25 .
2. اللمع فى التصوف ص41 .
3. التعرف لمذهب أهل التصوف ص30 .
4. عوارف المعارف 1/211 .
5. الدر الثمين والمورد المعين لمحمد بن محمد المالكى ، طبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر سنة 1954م 2/169 ، وانظر التصوف عند العرب لجبور عبد النور ، طبعة بيروت لبنان سنة 1938م ص78 .
6. الرسالة القشيرية 2/550 .
7. كشف المحجوب ص39 .

أن الصوفى لقب بهذا الاسم ، لأنه يرتدى رداء من الصوف ، ويقول البعض الآخر : إنه لقب بالصوفى لأنه فى الصف الأول ، ويقول آخرون : إن السبب هو أنهم ينتمون إلى أهل الصفة ، وهناك من يقول كذلك : إن الإسم مشتق من الصفاء ، ولكن هذه التفسيرات لكلمة صوفى لا توفى متطلبات الاشتقاقات اللغوية) [1] .

والهجويرى يرى أن هذه التسمية اسم علم لا يحتاج إلى شرح ، فمعنى الصوفية عنده

بالنسبة للصوفى واضح كضوء الشمس ، ويبرر ذلك بأن الصوفى ممنوع من العبارة عن نفسه أو الإشارة حتى لا يقع فى الرياء أو إظهار الذات ، وبما أن كلمة صوفى تتطلب شرحا ، فإن كل الناس يحاولون تفسيرها سواء عرفوا قدرها أم جهلوه أثناء تعلم معناها ولكن هكذا يلقب الكامل منهم بالصوفى ويسمى المريد والطلاب بالمتصوفة [2] وقيل : إنما سموا صوفية نسبة لبنى صوفة قبيلة من العرب لها صلة وثيقة بالبيت الحرام فلهذه الرابطة التى تتم بين القوم وبين بيوت الله تعالى نسب الصوفية إلى بنى صوفه ، وهذا إن كان موافقا للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف ، لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك ، ولو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب فى زمن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين وتابيعهم أولى ولأن غالب من تكلم باسم الصوفية لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة فى

---

1. السابق ص 39 .
2. السابق ص 39 بتصرف .

الجاهلية ولا وجود لها فى الإسلام [1] ، ويحاول الكلاباذى جاهدا أن يضع الاحتمالات الممكنة لتبرير هذه النسبة بوجه مقبول ، ليجعلها متفقة فى المعانى وإن اختلفت فى الظاهر اختلاف تنوع لا تنافر أو تضاد ، فهى إن أخذت من

الصفاء والصفوة ، كانت صَفَوِيَّة ، وإن أضيفت إلى الصَّف أو الصُّفَة ، كانت صَفِّية أو صُفِّية ، ويجوز عنده أن يكون تقديم الواو على الفاء فى لفظ الصوفية وزيادتها فى لفظ الصَفِّية أو الصُفِّية ، إنما كانت من تداول الألسن ، وإن جعل مأخذه من الصوف ، استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة ، وجميع تلك المعانى عند الكلاباذى ، من التخلى عن الدنيا ، وعزوف النفس عنها وترك الأوطان ، ولزوم الأسفار ، ومنع النفوس وحظوظها ، وصفاء المعاملات وصف التصوف السابق [2] .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن : هل رد التصوف إلى الصوف أو الصفاء أو الصفة أو الصف الأول ، يعتبرا أصلا مقبولا ومقنعا ، له ما يؤيده فى الكتاب والسنة ؟ .

وإذا كانت العلوم الإسلامية قد وجد لها أصل فى الكتاب أو السنة ، من جهة التسمية والنسبة كما سبق ، فما هو الأصل القرآنى أو النبوى الذى يرد إليه مصطلح التصوف ؟ وما هو موقف الصوفية من هذه التساؤلات ؟

---

1. الصوفية والفقراء لابن تيمية ص 11 .
2. التعرف لمذهب أهل التصوف ص34 بتصرف .

على ضوء الأصول القرآنية والنبوية :

لم يتوان الصوفية ، شأنهم شأن الآخرين ، فى وضع الإجابة المقنعة لمثل هذه التساؤلات ، ورد علمهم إلى أصل يشهد له الكتاب والسنة ، فيقول السراج الطوسى وهو من أقدم المؤرخين لدي الصوفية وأعظمهم [1] : (باب الكشف عن اسم الصوفية ، ولم سموا بهذا الإسم ؟ ولم نسبوا إلى هذه النسبة ؟ إن سأل سائل فقال : قد نسبت أهل الحديث إلى الحديث ، ونسبت الفقهاء إلى الفقه فلم قلت : الصوفية ؟ ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم) [2] .

وبعد مقدمة طويلة نسب التصوف إلى الصوف ، لأنه كما ذكر لباس خشن بعيد عن النعومة والليونة ، وقد كان يلبسه الأنبياء والصالحون ومرتبط بالزهد فى أذهانهم ، فتبعهم الصوفية فى ذلك ، ونسبوا إليه [3] .

ويذكر السهروردى البغدادى ، أن اختيارهم للبس الصوف ، كان لتركهم زينة الدنيا ، وقناعتهم بسد الجوعة ، وستر العورة ، واستغراقهم فى أمر الآخرة وهذا الاختيار ، ملائم ومناسب من حيث الاشتقاق ، ولأن ذلك أبين فى الإشارة إليهم ، وأدعى إلى حصر وصفهم ، إذ لبس الصوف حال المقربين من الأنبياء والصالحين [4] .

1. انظر مقدمة تحقيق اللمع للدكتور عبد الحليم محمود ص 7 .
2. اللمع ص40 .
3. قضية التصوف المنقذ من الضلال للدكتور عبد الحليم محمود ص 31 بتصرف .
4. عوارف المعارف للسهروردى تحقيق ، د/ عبد الحليم محمود 1/211 .

كما أن هذه النسبة نسبة راجحة عند كثير من العلماء ، يقول ابن خلدون فى مقدمته : (والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف ، وهم فى الغالب مختصون بلبسه ، لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب ، إلى لبس الصوف) [1] .

ومن ثم اعتمد أغلب المحققين من الصوفية وغيرهم ، فى تأصيل التصوف الردة إلى الصوف ، ويعتبرونها الأسلم والأصوب نظرا للسلامة اللغوية ، فالتصوف مصدر الفعل الخماسى المصوغ من صوف ، للدلالة على لبس الصوف ، وكما يقال : تقمص إذا لبس القميص ، يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، كما أن الصوف يتوافق مع الهدف الصوفى الداعى إلى التقشف والخشونة ، وشظف العيش ، فالنسبة إلي الصوف على حد قول بعضهم :

(موفقة كل التوفيق) [2] ، بل رأى بعض

الباحثين ، كالأستاذين لويس ماسينيون ومصطفى عبد الرازق ، ضرورة رفض ما سواها من الأقوال التى قال بها القدماء والمحدثون على السواء فى أصل الكلمة [3] .

والمسألة التى تقتضى البحث المنهجى ، هى معرفة هدى النبى فى اللباس

---

1. مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، لجنة البيان العربى الطبعة الأولى سنة1960م ، 3/1062 .
2. قضية التصوف المنقذ من الضلال للدكتور عبد الحليم محمود ص36 .
3. الإسلام والتصوف ، تأليف لويس ماسينيون ومصطفى عبد الرازق ، طبعة دار الشعب بالقاهرة سنة 1399هـ ، 1979م ، ص14 .

واستقصاء الأدلة فى الكتاب والسنة ، لاستخراج الأصل الذى يدعو إلى لبس الصوف ، أو اعتباره شعارا لسلوك ما أو تفضيله على غيره من أنواع اللباس بحيث يمكننا القول : إن مصطلح التصوف له أصل قرآنى أو نبوى يرد إليه إذا نسب إلى الصوف ، وإن اتخاذ الصوف ملبسا وشعارا للصوفية فى زيهم دون غيره ، أمر لا غبار عليه شرعا ؟!

فإذا طالعنا كتاب اللَّه وجدنا أن الصوف ورد مرة واحدة ، فى سياق آية تعدد نعم اللَّه تعالى على الإنسان ، منها أن اللَّه خلق له

الأنعام ، ينتفع بها فى عدة أشياء ، ذكر منها الصوف ، لكنه نص على استخدامه فى الأثاث والمتاع فقال تعالى : ﴿ وَاللَّه جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بِيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بِيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ [النحل/80] ، ولما ذكر اللّه الملبس بعدها ، عمم ولم يخصص الصوف وحده ، فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل/81] .

قال الإمام البخارى : (سَرَابِيلَ قُمُصٌ) [1] ، وقال قتادة : سرابيل من القطن والكتان والصوف [2] .

---

1. فتح البارى 8/235 .

2. فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير ، لمحمد بن على الشوكانى طبعة مصطفى البابى الحلبى ، الطبعة الثانية ، سنة 1383هـ 1964 م 3/186 .

وقال ابن عباس ﷺ : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ يعنى الثياب [1] ، فالصوف ذكر على سبيل النعمة المستخدمة غالبا فى الأثاث والمتاع ، لقوة تحمله كالخيام والغطاء والوطاء ، وما يفرش فى المنازل ويتزين به [2] ، كما يستخدم هو وغيره من أنواع الثياب ، فى

الملبس بحكم الواقع البدائى .

وقد دلت السنة النبوية ، على أن لبس الصوف لم يكن مرغوبا بين الصحابة ، وإنما فرض عليهم لأنهم لم يجدوا غيره ، وإذا تيسر استبدلوه ، فعن عكرمة مولى ابن عباس أَنَّ أُنَاسًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، جَاءُوا فَقَالُوا : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، أَتَرَى الْغُسْلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاجِبًا ؟ قَالَ : لا ، وَلَكِنَّهُ أَطْهَرُ وَخَيْرٌ لِمَنِ اغْتَسَلَ ، وَمَنْ لَمْ يَغْتَسِلْ فَلَيْسَ عَلَيْهِ بِوَاجِبٍ ، وَسَأُخْبِرُكُمْ كَيْفَ بَدْءُ الْغُسْلِ ؟ كَانَ النَّاسُ مَجْهُودِينَ يَلْبَسُونَ الصُّوفَ ، وَيَعْمَلُونَ عَلَى ظُهُورِهِمْ ، وَكَانَ مَسْجِدُهُمْ ضَيِّقًا مُقَارِبَ السَّقْفِ ، إِنَّمَا هُوَ عَرِيشٌ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّه فِي يَوْمٍ حَارٍّ ، وَعَرِقَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الصُّوفِ ، حَتَّى ثَارَتْ مِنْهُمْ رِيَاحٌ ، آذَى بِذَلِكَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَلَمَّا وَجَدَ رَسُولُ اللَّه تِلْكَ الرِّيحَ ، قَالَ : " أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا كَانَ هَذَا الْيَوْمَ فَاغْتَسِلُوا ، وَلْيَمَسَّ أَحَدُكُمْ أَفْضَلَ مَا يَجِدُ مِنْ دُهْنِهِ وَطِيبِهِ " ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " ثُمَّ جَاءَ اللَّه بِالْخَيْرِ ، وَلَبِسُوا غَيْرَ الصُّوفِ وَكُفُوا الْعَمَلَ ، وَوُسِّعَ مَسْجِدُهُمْ ، وَذَهَبَ بَعْضُ الَّذِي كَانَ يُؤْذِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنَ الْعَرَقِ " [3] .

---

1. السابق 3/186 .
3. السابق 3/186 .
3. أخرجه أبو داود فى كتاب الطهارة برقم (353)

وحسنه الألبانى 1/97 .

فدلالة الحديث واضحة فى رفضهتم البقاء على الصوف بعد مجئ الخير ، ولولا أنهم لم يجدوا غيره ما لبسوه ، ومعلوم أن انتقالهم عنه إلى غيره ، لم ينقص من فضلهم شيئا ، أو يؤثر فى عبوديتهم للَّه أو قوة إيمانهم به ، فدعوى تفضيله على غيره أو مواظبة الفضلاء السابقين من الصحابة والتابعين على استعماله كملبس دال على إظهار الزهد والخشونة فى العيش ، بغية التقرب إلى اللَّهِ ، دعوة مرفوضة بالأصول النبوية ، وعَن أَبِي بُرْدَةَ قَالَ : " قَالَ لِي أَبُو مُوسَى : يَا بُنَيَّ ، لَوْ رَأَيْتَنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ، وَأَصَابَنَا الْمَطَرُ ، وَجَدْتَ مِنَّا رِيحَ الضَّأْنِ ، إِنَّمَا لِبَاسُنَا الصُّوفُ " [1] ، فهو يحكى واقعا مضى استبدل فى حاضره بغير الصوف من أنواع اللباس الأفضل ، عند ظهور النعمة وتوفر البديل ، ولو كان فى بقائه فضل لما غيروه ، وورد أيضا كثير من الروايات الدالة على إشفاق النبى ، على مجموعة من فقراء العرب ، لأنهم لم يجدوا غير الصوف ملبسا ، من شدة الحاجة والفاقة ، فحث الناس على الصدقة ، ورغب فيها أشد ما يرغب ، فدعا إلى الصدقة ، ولو بشئ يسير ، يساعد على تغيير تلك الصورة البائسة ، فعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه قَالَ :

" جَاءَ نَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّه ، عَلَيْهِمُ الصُّوفُ ، فَرَأَى سُوءَ حَالِهِمْ قَدْ أَصَابَتْهُمْ حَاجَةٌ " [2] وفى رواية أخرى يصفهم جرير بْنِ عَبْدِ

---

1. أخرجه أحمد فى مسند الكوفيين (19259) ، والترمذى برقم (2479) وصححه الألبانى 4/560 .
2. أخرجه مسلم فى كتاب العلم (1017) 2/704.

اللَّه بقوله : " كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّه فِي صَدْرِ النَّهَارِ ، فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّه لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ ، فَدَخَلَ أى إلى منزله ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلالا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمِ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. إِلَى آخِرِ الآيَةِ .. إِنَّ اللَّه كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء/1] وَالآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ : ﴿ اتَّقُوا اللَّه وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّه ﴾ [الحشر/18] ، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ ، مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ ، حَتَّى قَالَ : وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ " [1] .

وأما العادة فى ملبسه وهو الأسوة والقدوة لكل مسلم ، فكان المحبوب لديه دائما القطن وغيره ، دون الصوف ، لما روى عن قَتَادَةَ قال : " قُلْتُ لأَنَس بن مالك : أَيُّ

الثِّيَابِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ أَنْ يَلْبَسَهَا ؟ قَالَ : الْحِبَرَةُ[1] "، والحبرة ثياب مزينة من القطن أو الكتان ، قال ابن بطال : الحبرة من برود اليمن تصنع من القطن ، وكانت أشرف الثياب عندهم [3] ولا يعنى ذلك أنه نهى عن استعمال الصوف أو تركه مطلقا ولكن كان يستعمله ضمن اللباس لا يفضله على غيره ، لما ثبت عن الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ

---

1. الحديث السابق ، وأخرجه النسائى فى كتاب الزكاة (2554) 5/75 .
2. أخرجه البخارى فى كتاب اللباس (5812) 10/ 287 ، ومسلم فى كتاب اللباس والزينة (2079) 3/1648 .
3. فتح البارى 10/281 .

قَالَ :" كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّه ، فِي رَكْبِهِ وَمَعِي إِدَاوَةٌ ، فَخَرَجَ لِحَاجَتِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ ، فَتَلَقَّيْتُهُ بِالإِدَاوَةِ ، فَأَفْرَغْتُ عَلَيْهِ فَغَسَلَ كَفَّيْهِ وَوَجْهَهُ ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ ذِرَاعَيْهِ ، وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ مِنْ جِبَابِ الرُّومِ ضَيِّقَةُ الْكُمَّيْنِ ، فَضَاقَتْ فَادَّرَعَهُمَا ادِّرَاعًا " [1] .

وقد أُهْدِيَ لِرَسُولِ اللَّه جُبَّةٌ مِنْ سُنْدُسٍ ، وَكَانَ يَنْهَى عَنِ الْحَرِيرِ فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْهَا ، وفى رواية أخرى : بُعِثَ إِلَى النَّبِيِّ جُبَّةٌ مِنْ دِيبَاجٍ مَنْسُوجٌ فِيهَا الذَّهَبُ ، وثالثة : أَهْدَى إِلَى النَّبِيِّ مُسْتُقَةً مِنْ سُنْدُسٍ ، ورابعة أُتِيَ بِثَوْبٍ

حَرِيرٍ ، أهداه إليه ملك الروم أكيدر صاحب دومة ، يقول أنس بن مالك راوى الحديث بالألفاظ السابقة : (فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يَدَيْهَا تَذَبْذَبَانِ منْ طُولِهِمَا ، فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَلْتَمِسُونَهَا ، وَيَقُولُونَ : أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه هَذِهِ مِنَ السَّمَاءِ " فَجَعَلُوا يَمَسُّونَهُ وَيَنْظُرُونَ " " فَقَالُوا : مَا رَأَيْنَا كَالْيَوْمِ ثَوْبًا قَطُّ ، قَالَ : وَمَا يُعْجِبُكُمْ مِنْهَا ؟ " وفي رواية أخرى :

" فَقَالَ أَتَعْجَبُونَ مِنْ هَذِهِ ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَمَنْدِيلٌ منْ مَنَادِيلِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ ، ثُمَّ بَعَثَ بِهَا إِلَى جَعْفَرٍ ، قَالَ : فَلَبِسَهَا جَعْفَرٌ ثُمَّ جَاءَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه : " إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ بِهَا إِلَيْكَ لِتَلْبَسَهَا ، قَالَ : فَمَا أَصْنَعُ بِهَا ؟ قَالَ : ابْعَثْ بِهَا إِلَى أَخِيكَ النَّجَاشِيِّ " [2] .

---

1. أخرجه البخارى فى كتاب الوضوء (182) 1/342 ، ومسلم فى الطهارة (274) 1/228 ، ومعنى وادرعهما أى نزع الزراعين عن الكمين .

2. جميع الروايات عن أنس بن مالك ، ولفظ : جبة سندس عند مسلم (2469)=

وهذا وإن دل على أن النبى لبسها مرة واحدة ، إلا أنه لم يمنع أن يرتدى المسلم أجود الثياب وأثمنها ، بدليل أنه أهداها إلى النجاشى ، كما أن المقارنة أو المفاضلة بين هذا الثوب وثياب سعد فى الجنة ، يدل على

ذلك أيضا ، فمن المعلوم أن أجود الأشياء فى الدنيا ، كأفضل الثياب وأجملها ، أو غير ذلك من أصناف النعيم ، هو الذى يقارن مع نعيم الجنة بقياس الأولى ، وقال عَبْدُ اللَّه بْنُ عَبَّاسٍ : لَمَّا خَرَجَتِ الْحَرُورِيَّةُ أَتَيْتُ عَلِيًّا فَقَالَ : ائْتِ هَؤُلاءِ الْقَوْمَ فَلَبِسْتُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنْ حُلَلِ الْيَمَنِ ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ سِمَاكُ بْنُ الْوَلِيدِ الْحَنَفِيُّ : وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَجُلا جَمِيلا جَهِيرًا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَأَتَيْتُهُمْ فَقَالُوا : مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، مَا هَذِهِ الْحُلَّةُ ؟ قَالَ : مَا تَعِيبُونَ عَلَيَّ ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّه أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُلَلِ [1] .

وأنكرت أَسْمَاء بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ على عَبْدِ اللَّه بْنِ عُمَرَ ، ما بلغها أنه

= 4/1916 ، والجبة رداء يلبس فوق الثياب ، والسندس ما رق من الحرير ، ولفظ : جبة من ديباج منسوج فيها الذهب عند الترمذى (1723) 4/218 ، والديباج نوع نفيس من الحرير ، ولفظ : مستقة من سندس عند أحمد فى المسند (13214) ، والمستقة فرو طويل الأكمام ، وقيل : كلمة أصلها فارسى ، ولفظ : أتى بثوب حرير عند أحمد فى المسند (13526) ، والحديث أخرجه البخارى فى كتاب الهبة (2616) 5/272 ومسلم (2469) 4/1916 .

1. حسن الإسناد ، أخرجه أبو داود فىكتاب اللباس (4037) 4/45 ، والحاكم فى المستدرك (2656) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه 2/164.

يحرم العلم فى الثوب وميثرة الأرجوان ، فبعثت إليه رسولها عبد اللَّه بن كيسان قَالَ : أَرْسَلَتْنِي أَسْمَاءُ إِلَى عَبْدِ اللَّه بْنِ عُمَرَ فَقَالَتْ : (بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَرِّمُ الْعَلَمَ فِي الثَّوْبِ ، وَمِيثَرَةَ الأُرْجُوَانِ ، فَقَالَ لِي عَبْدُ اللَّه : أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْعَلَمِ فِي الثَّوْبِ ، فَإِنِّي سَمِعتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه يَقُولُ : إِنَّمَا يَلْبَسُ الْحَرِيرَ مَنْ لا خَلاقَ لَهُ ، فَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ الْعَلَمُ مِنْهُ ، وَأَمَّا مِيثَرَةُ الأُرْجُوَانِ ، فَهَذِهِ مِيثَرَةُ عَبْدِ اللَّه ، فَإِذَا هِيَ أُرْجُوَانٌ فَرَجَعْتُ إِلَى أَسْمَاءَ فَخَبَّرْتُهَا ، فَقَالَتْ :

هَذِهِ جُبَّةُ رَسُولِ اللَّه ، فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جُبَّة طَيَالِسَةٍ كِسْرَوَانِيَّةٍ ، لَهَا لِبْنَةُ دِيبَاجٍ ، وَفَرْجَيْهَا مَكْفُوفَيْنِ بِالدِّيبَاجِ ، فَقَالَتْ : هَذِهِ كَانَتْ عِنْدَ عَائِشَةَ حَتَّى قُبِضَتْ ، فَلَمَّا قُبِضَتْ قَبَضْتُهَا ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَلْبَسُهَا " [1] .

ومعنى العلم : جزء من الحرير فى الثوب ، ومثيرة الأرجوان : المياثر أغشية للسروج تتخذ من الحرير ، والأرجوان هو الصبغ الأحمر شديد الحمرة والطيلسان : كساء غليظ مخطط ، والكسروانية : نسبة إلى كسرى ملك الفرس ، ومعنى لبنة ديباج وفرجيها مكفوفين بالديباج ، اللبنة : رقعة فى جيب القميص أو الجبة ، والديباج نوع نفيس

من الحرير ، وفرجيها مكفوفين أى كسيت جوانبها ، الذيل والشقين والكمين بالحرير [2] .

---

1. أخرجه مسلم فى كتاب اللباس والزينة برقم (2069) 3/1641 ، والنهى عن الحرير للرجال ، إذا استخدم كله ملبسا لا بعضه .
2. انظر صحيح مسلم بشرح النووى 1/4 ص43 ، 44 .

فمن مجموع ما تقدم من الأصول النبوية ، يمكن القول أن الصوف لم يكن ملبسا دأب النبى أو أحد أصحابه على تفضيله أو استعماله ، فدعوى السراج الطوسى : (إن لبس الصوف ، دأب الأنبياء عليهم السلام والصدقين وشعار المساكين) [1] تفتقر إلى الدليل .

وقد تتبعت الأدلة النبوية ، جاهدا أن أصل إلى حديث ثابت ، يدل على أن الأنبياء بصفة عامة داوموا على تفضيل الصوف ، أو الالتزام به أو اقترانه لديهم بعلم ما أو سلوك ما ، فلم أجد إلا ما اشتهر عند الصوفية من حديث الترمذى الذى تنفرد به عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ : " كَانَ عَلَى مُوسَى يَوْمَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ ، كِسَاءُ صُوفٍ ، وَجُبَّةُ صُوفٍ ، وَكُمَّةُ صُوفٍ ، وَسَرَاوِيلُ صُوفٍ وَكَانَتْ نَعْلاهُ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيِّتٍ " [2] وهو حديث ضعيف جدا [3] .

وأما ما ورد عند ابن ماجة ، عَنْ أَنَسِ بْنِ

مَالِكٍ قَالَ : " لَبِسَ رَسُولُ اللَّه الصّوفَ ، وَاحْتَذَى الْمَخْصُوفَ " [4] فعلى فرض ثبوته لا يدل على تفضيله أو المداومة عليه ، لما سبق من الأحاديث الأخرى .

---

1. اللمع للسراج الطوسى ص40 . 2. أخرجه الترمذى فى كتاب اللباس ، باب ما جاء فى لبس الصوف (1734) وقال الشيخ الألبانى : ضعيف جدا 4/ 224.
3. علته حُمَيْدُ بْنُ عَطّاءٍ بْنُ عَلِيٍّ الأَعْرَجِ الْكُوفِيِّ ، فهو منكر الحديث ، انظر الجرح والتعديل (996) 3/226 ، والمجروحين من المحدثين والضعفاء رقم (263) 1/262 .
4. ضعيف ، أخرجه ابن ماجة فى كتاب الأطعمة (3348) وقال عنه الشيخ الألبانى : ضعيف 2/1111 .

وتفضيله لما تقدم ، ولكن تفرد به ابن ماجة وهو ضعيف [1] ، وعلى ذلك فنسبة التصوف إلى الصوف ، وإن كانت سليمة من ناحية الاشتقاق ، إلا أنها تتطلب أصلا قرآنيا أو نبويا واضحا بينا ، نبنى عليه مشروعية الدعوة إلى تفضيل الصوف ، واتخاذ شعارا لعلم ما أو مذهب أو طريقة معينة .

. كيف ظهرت نسبة التصوف إلى الصوف ؟

لما ظهر اتجاه الزهد الذى تبناه أوائل الصوفية ، وقوى بعد عصر التابعين ، آثر

أصحابة العزلة ، إما بدافع الخلوة المؤدية إلى زيادة الإيمان وبلوغ الحقيقة ، أو الابتعاد عن الفتن والمنازعات التى حدثت بين المسلمين فى أعقاب الخلافة الرشيدة فآثروا وقتها العزلة عن الناس والزهد فى الدنيا ، أو رد الفعل الطبيعى لحياة الترف التى مرت بالمسلمين إبان الفتوحات الإسلامية ، أيا كان الدافع لهذا المسلك[2] ، فإن أصحابه اتخذوا ما تيسر من اللباس المناسب وقتها لاتجاه

---

1. علته نوح بن ذكوان ، وهو منكر الحديث جدا ، و يحدث بأحاديث أباطيل ، انظر الكاشف فى معرفة من له رواية فى الكتب الستة ، للذهبى ترجمة رقم (5890) 2/327 والكامل فى ضعفاء الرجال (1976) 7/44 ، وكتاب الضعفاء (250) ص152 ، تهذيب التهذيب رقم (874)10/431 ، وتهذيب الكمال رقم (6491) 30/48 ، والمجروحين رقم (1102) 3/47 ، وفى الحديث أيضا : يوسف بن أبى كثير وهو مجهول ، انظر الكاشف فى معرفة من له رواية فى الكتب الستة ، ترجمة رقم (6444) 2/400 ، ولسان الميزان (5344) 7/448 ، وتقريب التهذيب رقم (7877) 1/611 .

2. من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب ، د/ محمد السيد الجليند ص 19 : ص24 .

الزهد ، فلجأ أغلبهم بالضرورة إلى نوعية الصوف ، الملائم للخشونة وشظف العيش ، متقيدين آنذاك بحكم طبيعة البيئة العربية ، أو غير العربية فى المجتمع الأوَّلى البسيط ، وذلك

ليتوافق مع تأديب النفس ، وإلزامها بتحمله فترة طويلة فكان أحدهم يرتدى ملبسا خشنا من الصوف مدة عشرين سنة [1] ، ولا يخفى أن ذلك يبعث على تكوين صورة الزهد فى أذهان العامة والخاصة مقترنة بلبس الصوف على الدوام ، ويحكى الهجويرى عن شيخه ، أنه ارتدى جبة واحدة من الصوف مدة إحدى وخمسين سنة ، وكان يضع الرقع عليها دون كبير اهتمام [2] .

ويتكرر الأمر ملحوظا عند الغالبية من أبناء التصوف ، حتى أصبح لفظ الخرقة والمرقعة ، من المصطلحات التى لها مدلول مشترك ، وفق أصول وقواعد تعارفوا عليها فى وقت مبكر ، كما وضعت لها كتب وفصول ، يقول الهجويرى : (كتبت كتابا مفصلا فى هذا الموضوع عنوانه أسرار الخرق والمرقعات وعلى المريد أن يحتفظ لنفسه بنسخة منه) [3] .

كل ذلك أدى إلى ظهور رأى عام بين الصوفية وغيرهم ، يربط الزهد برؤية خشونة الصوف على بدن الزاهد ، حتى أشبه الأمر الإجماع السكوتى الصامت دل على ذلك ما ذكره ابن بطال ، حيث قال : (كره مالك لبس الصوف لمن

---

1. هو عبد الله بن خفيف الشيرازى ، انظر كشف المحجوب ص62 .

2. السابق ص62 .
3. السابق ص69 .

يجد غيره ، لما فيه من الشهرة بالزهد ، لإن إخفاء العمل أولى ، فلم ينحصر التواضع فى لبسه ، بل فى القطن وغيره ، مما هو دون ثمنه) [1] ، ومثله أيضا يلحظه الباحث ، فيما روى أبو الشيخ الأصفهانى ، بإسناده عن محمد بن سيرين ، أنه بلغه أن قوما يفضلون لباس الصوف ، فقال : إن قوما يتخيرون الصوف ، يقولون إنهم متشبهون بالمسيح بن مريم ، وهدى نبينا أحب إلينا وكان النبى يلبس القطن وغيره [2] .

وإذا أضفنا إلى ما تقدم ، سلامة اشتقاق مصطلح التصوف من مادة الصوف وجدنا تبريرا قويا يدعو إلى تبنى القول برد التصوف إلى الصوف ، فلما ظهرت حركة التأليف والتدوين فى مختلف العلوم سرى ذلك إلى ناحية التصوف ، فبدأ رجال من القوم يكتبون مناهجهم ، وما يدافعون به عن صحة اعتقادهم وسلوكهم ، فحاولوا فى طى ذلك البحث عن أصول قرآنية أو نبوية ينسبون علمهم إليها ، وكان أول من قام بذلك فيما أثر عن الصوفية من تراث هو أبو نصر السراج الطوسى (ت:378هـ) ، فهو - كما ذكر الدكتور عبد الحليم محمود - أعظم مؤرخ صوفى فى التاريخ قديما وحديثا [3] بل إن كتابه اللمع فى

التصوف له مكانة عند الصوفية لا ينالها كتاب آخر ، حتى قيل عنه : (كتاب

1. فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى 10/280 .
2. الصوفية والفقراء لابن تيمية ، تقديم الدكتور محمد جميل غازى ، طبعة مكتبة المدنى بالسعودية ص12، 13 وانظر كشف المحجوب ص61 وقارن .
3. اللمع ص7 .

اللمع هو الكتاب الأم فى تاريخ التصوف الإسلامى ، وقد اجتمعت له خصائص ما توافرت لغيره من كتب الحياة الروحية الإسلامية ، فهو أقدم مرجع صوفى إسلامى ، وهو فوق هذا أكبر هذه المراجع ، وأوثقها وأغزرها مادة ، وأنقاها جوهرا ولفظا ، ومن مادته الخصبة اقتبس كافة من أرخ للتصوف وعلىضوء مناهجه وأبوابه وقواعده ، جرت الأقلام التى قدمت لنا عبر التاريخ ، علوم الطريق ورجاله) [1] .

فلم أجد فى حقيقة الأمر ، من سبق السراج الطوسى فى رد التصوف إلى الصوف ، أو محاولته تبرير ذلك بأنه دأب الأنبياء والصديقين وشعار المساكين المتنسكين ، ولذلك جزم بالأمر مرة واحدة إذ يقول : (باب الكشف عن اسم الصوفية ولم سموا بهذا الإسم ؟ ولم نسبوا إلى هذه النسبة ؟ إن سأل سائل فقال : قد نسبت أهل الحديث إلى

الحديث ، ونسبت الفقهاء إلى الفقه ، فلم قلت : الصوفية ، ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم ؟) [2] .

فسياق النص فى كتاب لأقدم المؤرخين ، كاللمع فى التصوف ، يشعر بأن السراج الطوسى صاحب القدم الأولى واليد الطولى فى تبرير هذه النسبة ، وقد بين فيما طرح من تساؤل ، أن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ولم يرتسموا برسم من الأحوال دون رسم ، فليس لديه خيار إلا ظاهر اللبسة فنسبهم إليها ، ثم وجد أن ملبس الأنبياء والأولياء الأصفياء على أغلب الظن يتوافق مع ملبس الفقراء فجزم بالأمر فى رد التصوف إلى الصوف ، يقول

---

1. السابق ص10 .
2. السابق ص40 .

السراج : (فكذلك الصوفية عندى واللَّه أعلم ، نسبوا إلى ظاهر اللباس ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التى هم بها مترسمون لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء وشعار الأولياء والأصفياء ، ويكثر فى ذلك الروايات والأخبار ، فلما أضفتهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك إسما مجملا عاما مخبرا عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة) [1] .

ومعلوم مما تقدم أن جميع الروايات والأخبار ، لا تثبت أن نبيا من الأنبياء تخير الصوف ولازمه دون سائر اللباس ، فضلا عن رسول اللّه وأصحابه ، ولكنه وهو يتعقب الأدلة ، ليقوى رأيه فى نسبة التصوف إلى الصوف والبحث عن دليل قرآنى أو نبوى ، يصحح النسبة إلى ظاهر اللباس ، نظر إلى حال الحواريين [2] ، اتباع عيسى ، إذ لبسوا البياض وجمعوا أوصاف الإيمان ، وصدق المتابعة فى كل النواحى ، فسموا حواريين نسبة إلى ظاهر اللبسة ، يقول السراج : (ألا ترى أن اللّه تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى ، فنسبهم إلى ظاهر اللبسة ، فقال عز وجل : وإِذْ قَالَ

---

1. السابق ص40 .
2. الحواريون جمع حوارى وهو مأخوذ من الحور وهو البياض عند أهل اللغة ، ويقال لنساء الجنة : الحور العين لشدة بياضهن يقال : حورت الثياب إذا بيضتها ، وقال عبد الله بن عباس :" إنما سموا الحواريين لبياض ثيابهم كانوا صيادين ، انظر فتح القدير 1/344 وقال البخارى : (بَاب مَنَاقِبِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " هُوَ حَوَارِيُّ النَّبِيِّ وَسُمِّيَ الْحَوَارِيُّونَ لِبَيَاضِ ثِيَابِهِمْ " انظر فتح البارى 7/99 .

الْحَوَارِيُّونَ [المائدة/112] ، وكانوا قوما يلبسون

البياض ، فنسبهم اللَّه تعالى إلى ذلك ، ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التى كانوا بها مترسمين ، فكذلك الصوفية عندى واللَّه أعلم) [1] ، فشبه حال الصوفية فى إيمانهم وعدم اختصاصهم بعلم أو رسم ينسبون إليه ، بحال الحواريين الذين لم ينسبوا إلى علم أو حال ، فالعلة المشتركة بينهم ، هى النسبة إلى ظاهر اللبسة فصحت عنده نسبة التصوف إلى الصوف .

ولما أصل السراج الطوسى هذه النسبة ، وأظهر رأيه فيها بجرأة ، تتابع المؤلفون من معاصريه ولا حقية ، يوافقون رأيه أو يخالفون ، يدققون ويبحثون عن الوازم المترتبة على رد التصوف إلى الصوف ، إما بإظهار نسبة أخرى تتآزر مع السابقة أو تنفرد دونها ، فالقول بأن التصوف إلى الصوف فقط تركيز على المظهر دون الجوهر ، والظاهر دون الباطن ، ودعوتهم فى حقيقتها تنصب على الباطن ، وتدعوا إلى النظر فى أعماق الأمور وبلوغ الحقيقة ، ومن ثم حاول الكلاباذى أن يستقصى كل الوجوه الممكنة ، ثم تابعه الهجويرى والقشيرى ، ثم الغزالى والسهروردى وغيرهم من مؤرخى التصوف ، فكانت أبرز الوجوه التى يرد إليها التصوف غير الصوف القول بأنه من الصفاء .

رد التصوف إلى الصفاء ومناقشته :

لا يصح من جهة الاشتقاق اللغوى رد التصوف إلى الصفا ء أو الصفوة لأنه لو صح لقيل : صَفَوِيٌّ لا صوفى ، قال الراغب الأصفهانى : أصل الصفاء

---

1. اللمع ص41 .

خلوص الشئ من الشوب ومنه الصفا للحجارة الصافية قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِاللَّه ﴾ [البقرة/158] [1] .

وقال عمر بن الخطاب ﷺ يصف رسول اللَّه ﷺ : " قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّه وَمَا لِي لا َبْكِي ، وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لا أَرَى فِيهَا إِلا مَا أَرَى ، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ " [2] ، فالمصطفى هو المختار المنتقى من سائر الناس .

والصوفية فى ردهم التصوف إلى الصفاء ، أرادوا أن يبينوا أن طريقتهم ليست فى التزام الصوف والزهد الظاهرى فقط ، وإنما هى جوهر يجعلها أسمى الطرق وأعلاها كمالا وتحققا ، فلهم من الفهم العميق ، والاستنباط الدقيق ، فى بعض النواحى ما ليس لغيرهم ، يقول السراج الطوسى : (وللصوفية مستنبطات فى علوم مشكلة على فهوم الفقهاء والعلماء ، لأن ذلك لطائف مودعة فى إشارات لهم ،

تخفى فى العبارة من دقتها ولطافتها ، وذلك فى معنى العوارض والعوائق ، والعلائق والحجب ، وخبايا السر ، ومقامات الإخلاص ، وأحوال المعارف ، وحقائق العبودية ، ومحو الكون بالأزل .. إلخ) [3] .

ولما كان مسلك الصوفية ، هو التخلص من الشوائب الحاجبة فى الباطن

---

1. المفردات ص283 .
2. أخرجه مسلم فى كتاب الطلاق (1479) 2/1105 .
3. اللمع ص32 .

والتحرر مما سوى اللَّه ، وكانت النسبة إلى الصوف وحدها ، لا تكفى تبريرا لأصل التصوف ، لأنها مظهر دون جوهر ، نقب بعضهم عن شخصية مرموقة يرجعون إليها الصفاء كأصل للتصوف ، فتخيروا أبا بكر الصديق مثلا أعلى ، وقدوة يحتذى بها الصوفى فى صفائه ، فقال الهجويرى :

إن الصفا صفة الصديق : إذا أردت صوفيا على التحقيق [1] .

ويتابع قائلا : (ذلك أن للصفاء أصل وفرع ، فأصله انتزاع القلب من الأغيار ، وفرعه نفض اليد من هذه الدنيا الخادعة ، وكانت هاتان الصفتان تميزان الصديق ، أبا بكر عبد اللَّه بن أبى قحافة ، فهو إمام أهل هذه

الطريقة) [2] ، ثم يورد دليلين على صفاء أبى بكر الذى انتسب إليه الصوفية أحدهما له أصول قرآنية ، والآخر له أصول نبوية .

[1]- أما الأول : فهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِين َ﴾ [آل عمران/144] ، ووجه استدلاله أن الصحابة كلهم انكسرت قلوبهم لموت رسول اللّه ، حيث تعلقت قلوبهم بالفانى ، فسل عمر سيفه ، وقال : من قال إن النبى قد مات ، جززت رأسه فقال أبو بكر عندها بصوت عال : " من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد

---

1. كشف المحجوب ص40 وانظر اللمع للسراج الطوسى ص 210 ، 346 ، 483 513 ، والرسالة القشيرية 2/563 ، 585 .
2. السابق ص40 .

مات ، ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حى لا يموت ، وتلا الآية الكريمة " [1] .

يقول الهجويرى : (فكل من يربط قلبه بالفانى ، فإنه يفنى ويضيع سعى قلبه هباء ، والذى يمد روحه إلى اللّه الباقى ، يكون قائما بالبقاء ، حين تفنى النفس ، فأبو بكر لم ينظر إلى ما حدث من تبديل الحياة بالموت ، ولكنه نظر إلى اللّه الذى بدل كل شئ ، ومن

ثم تحقق فيه أصل الصفاء ، وهو انتزاع القلب من الأغيار) [2] .

[2] - وأما الثانى فهو فرع الصفاء وهو نفض اليد من هذه الدنيا الخادعة حيث تبرع أبو بكر بماله كله ومواليه وارتدى رداء الصوف - على حد قول الهجويرى - ثم جاء إلى النبى فسأله : وما خلفت لعيالك ؟ فأجابه أبو بكر تركت لهم اللَّه ورسوله [3] ، ثم يقول معقبا على هذين الدليلين : (إن الصفا عكس للكدر ، والكدر من صفات الإنسان ، ولهذا فإن الصوفى الحقيقى هو من يترك الكدر وراء ظهره) [4] .

وهذا الكلام لا يعبر عن واقع الأدلة ، لأن فيه تنقيص للصحابة دون أبى بكر ، فهل انكسرت قلوبهم لأنهم تعلقوا بالفانى على حد قول الهجويرى ؟ أو هل فى صفائهم كدر ، وما تركوه وراء ظهورهم كأبى بكر ؟ أو أن أبا بكر يصلح أن يكون فى صفائه قدوة للصوفية وعمر بن الخطاب صفاؤه مشوب ولا يصلح لذلك ؟

---

1. السابق ص40 .
2. السابق ص40 .
3. السابق ص40 .
4. السابق ص41 .

إن الأمر فى حقيقته ، لا علاقة له بصفاء أبى بكر أو غيره ، ولكن الثابت الصحيح أن عمر بن الخطاب ، ظن أن رسول اللَّه

مغشى عليه ، وكان فى اعتقاده أن تمام الدين يلزمه القضاء على المنافقين ، ومن ثم سوف يبقى النبى حتى يقضى عليهم ، دل على ذلك ما قالته أم المؤمنين عائشة رضى اللّه عنها وقد مات النبى بين يدها ، وهى تظن أنه مغشى عليه : " فَسَجَّيْتُهُ ثَوْبًا فَجَاءَ عُمَرُ وَالْمُغيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ، فَاسْتَأْذَنَا فَأَذِنْتُ لَهُمَا ، وَجَذَبْتُ إِلَيَّ الْحِجَابَ ، فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : وَاغَشْيَاهْ ، مَا أَشَدَّ غَشْيَ رَسُولِ اللَّه ثُمَّ قَامَا ، فَلَمَّا دَنَوَا مِنَ الْبَابِ ، قَالَ الْمُغيرَةُ : يَا عُمَرُ مَاتَ رَسُولُ اللَّه ، قَالَ : كَذَبْتَ ، بَلْ أَنْتَ رَجُلٌ تَحُوسُكَ فِتْنَةٌ ، إِنَّ رَسولَ اللَّه لا يَمُوتُ ، حَتّى يُفْنِيَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ الْمُنَافِقِينَ " [1] وفى رواية أخرى : " وَعُمَرُ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ يَقُولُ : وَاللَّه مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّه ، وَلا يَمُوتُ ، حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِيَ أُنَاسٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَثِيرٍ وَأَرْجُلَهُمْ " [2] .

وفى هذا دليل قوى على رغبة عمر فى تصفية التوحيد من النفاق ، وأما بقية الصحابة كانوا ذهولا من أثر الواقعة ، وذلك من شدة صفائهم للّه وحبهم لرسوله ، وليس الأمر على ما يفسره الهجويرى ، أنهم جميعا ربطوا قلوبهم بالفانى ، وأبو بكر هو الذى مد روحه إلى اللّه الباقى ، كما أن أبا

1.أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز (1242) 3/136.

2. جزء من حديث ، أخرجه ابن ماجة فى كتاب الجنائز برقم (1627) ، وصححه الشيخ الألبانى 1/520 .

بكر ، كان من أشد المنكسرين قلبا على فراق خليله ، فورد فيما ذكرته أم المؤمنين عائشة : " ثُمَّ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَرَفَعْتُ الْحِجَابَ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، مَاتَ رَسُولُ اللَّه ، ثُمَّ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَحَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ ، ثُمَّ قَالَ : وَا نَبِيَّاهْ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ حَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ ، ثُمَّ قَالَ : وَا صَفِيَّاهْ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَحَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ وَقَالَ : وَا خَلِيلاهْ مَاتَ رَسُولُ اللَّه (1) " ، وليس أدل على انكسار قلبه من ذلك .

وكذلك يقال فى استدلال الهجويرى على نفض الدنيا الخادعة ، بما فعله أبو بكر ، عندما قدم كل ما يملك صدقة لله ورسوله ، فقد ساق الحديث يبرر به ضرورة التلازم بين الصفاء وتخلى المرء عما يملك ، وانتقاله إلى رداء الصوف ولبس المرقعات أسوة بأبى بكر الصديق ، ولا يخفى أن الحديث مسوق لتبرير نسبة التصوف إلى الصفاء ، بل وصل الأمر أن يبرروا به ما فعله أبو الحسين النورى وأبو بكر الشبلى وأمثالهما ، فالنورى من صفائه كما سبق أنه حمل إليه ثلاثمائة دينار ، ثمن عقار بيع له ، فصعد قنطرة وظل يرمى واحدا واحدا

منها إلى الماء ، ويقول : حبيبى تريد أن تخدعنى منك بمثل هذا ؟ [2] .

والشبلى ربما يخلع ثيابه المثمنة ثم يحرقها بالنار [3] ، وهو الذى أوجب على الصوفية كما سبق ، أن تكون زكاة خمس من الإبل ، خمسا من الإبل ، بدلا من شاة كما هو الحكم ، ولما سئل السراج الطوسى عن إمامهم فى ذلك

---

1. أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز (1242) وأحمد 6/319 واللفظ له .
2. اللمع ص493 . 3. السابق ص483 .

قال : إمامهم أبو بكر الصديق ، حيث خرج من ماله كله ، فقال له النبى : ما خلفت لعيالك ؟ قال : اللَّه ورسوله ، فلم ينكر عليه ذلك [1] .

ومعلوم أن الاستدلال بفعل أبى بكر على هذه الأمثلة ، قياس مع الفارق لاختلاف العلة فى الفعلين ، فأفعالهم لا يقبلها عقل صريح ، ولا يقرها نقل صحيح ، وفعل أبى بكر خدمة للأمة فى وقت يجب مثله ، فلا شك أن الضرورة قد تدعو الإنسان إلى التضحية بكل ما يملك فى بعض الأوقات والأزمات لا سيما المسلم ، وهذه علة فعل أبى بكر الصديق ، إضافة إلى أن الرسول هو الذى أمرهم بالصدقة ما استطاعوا ، لسد حاجة

المسلمين ونصرة الدين ، وأمر الرسول مطاع عند المؤمنين على قدر المستطاع ، فقد قال عمر بن الخطاب في نص الحديث المذكور : " أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّه أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالا ، فَقُلْتُ : الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا قَالَ : فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي فَقَالَ : ما أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟ قُلْتُ : مِثْلَهُ ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟ قَالَ : أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّه وَرَسُولَهُ ، قُلْتُ : وَاللَّه لا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا "[2] ، وهو مع هذا يسأل أبا بكر وعمر ما خلفت لأهلك ؟ ، حرصا منه على الاكتفاء الذاتى للأسرة ، فليس من المعقول أو المنقول ، أن يخرج المرء كل ما عنده بغية الصفاء ، ثم يدور يسأل الناس أعطوه أو منعوه .

---

1. السابق ص493 .
2. حسن ، أخرجه الترمذى فى كتاب المناقب (3675) وقَالَ الألبانى : حَسَنٌ .

إن تبرير الهجويرى فى رده التصوف إلى صفاء أبى بكر الصديق ، فيه تحميل الأدلة ما لا يطاق ، وتوجيه لها فى غير موضعها ، حيث بدت للناظر وكأنها مسوقة إلى غير مأتاها ، لتتوافق مع الدعوة إلى الصفاء الصوفى ،

وليس من شك أن السعى إلى الصفاء والتحرر من قيود المعصية ، هو دين اللَّه عز وجل وهو عام فى كل قول وفعل ، بل يمكن القول إنه شرط الإسلام لقبول العمل ، ولكن بضوابط العبودية الممثلة فى ركنيها الأساسيين :

[1] - الإخلاص الذى هو معنى الركن الأول من الشهادة : لا إله إلا اللَّه والذى بينه رسول اللَّه فى الحديث القدسى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ اللَّه َتَعَالَى :

" أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ " [1] ، وفى رواية أخرى : " فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ " [2] .

[2] - المتابعة لرسوله التى هى معنى الركن الثانى من الشهادة : محمد رسول اللَّه ، وقد بينه النبى فى حديث عَائِشَةَ رضى الله عنها حيث قال :

" مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ " [3] ، وفى رواية أخرى : " مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ " [4] وثالثة : " مَنْ صَنَعَ أَمْرًا مِنْ غَيْرِ

---

1. أخرجه مسلم فى كتاب الزهد والرقاق (2985) 4/2289.
2. ابن ماجة فى كتاب الزهد (4202) وصححه الألبانى 2/1405.
3. البخارى فى الصلح (2697) 5/354 ومسلم فى

الأقضية (1718) 3/1343 .
4. أخرجه ابن ماجة فى المقدمة (14) .
أَمْرِنَا فَهُوَ مَرْدُودٌ "[1] ، ومن ثم علمنا أن دعوة النبى للصدقة ، تكون على سبيل الاستحباب ، إذا أدى المسلم فرض الزكاة ، إلا فى حال يلزم فيها التضحية ، إما لجهاد ، أو بناء لازم من اللوازم الضرورية لقيام المجتمع الإسلامى ، فإذا تغير الحال ، وزادت الأموال ، وزال لازم التضحية ، فلا معنى للمداومة على نفض اليد أولا بأول ، على حد قول الهجويرى ، ولا معنى لخروج المسلم من كل ما يملك كلازم للصفاء ، إذ أن الصفاء صفاء القلب بالزهد فى الحياة ، وإدراك المسلم أنه فيها مبتلى من الله ، وأنه مطالب بتنفيد أمر الله فيما خوله واسترعاه ، وهذا متحقق فى كثير من أنبياء الله كإبراهيم وداود وسليمان عليهم السلام ، كما أن النبى نهى أن يفارق المسلم ماله كله فى الحياه ، وإذا مات أبقاه لورثته ، إلا الثلث فله أن يوصى به لمن شاء فمن عمل عملا على غير ذلك ، وإن حسنت نيتة ، ففعله لا أصل له ، وهو مخالف للسنة ، وصفاؤه مردود عليه ، فقد ثبت عنه ، أن سعد بن أبى وقاص ، قَالَ له : " يَا رَسُولَ اللَّه بَلَغَنِي مَا تَرَى مِنَ الْوَجَعِ ، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلا يَرِثُني إِلا ابْنةٌ لِي وَاحِدَةٌ ، أَفَأَتَصَدَّقُ

بِثُلُثَيْ مَالِي ؟ ، قَالَ : لا ، قُلْتُ : أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ ؟ قَالَ : لا ، الثُّلُثُ ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ، وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّه إِلا أُجِرْتَ بِهَا ، حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ " [2] .

---

1. أخرجه أحمد فى المسند (23929) .
2. أخرجه البخارى فى كتاب الوصايا (2742) 5/427 .

ولو كان خروجه من جميع المال فيه صلاح له ، لأمره النبى بذلك فهذا أمر النبى ، ليضبط مسألة الصفاء فى الفرع ، وكيف يتعامل المسلم مع المال ، والمقياس الذى ينفض به يده منه ، ومعلوم أن سعد من العشرة المبشرين بالجنة ، وامتثاله لأمر الرسول ، يعد أنموذجا للصفاء المطلوب وهو بذاته يشاكل صفاء أبى بكر ، لأنه ولى الخلافة بعد رسول اللّه وكان بيت مال المسلمين بين يديه ، يقوم بعده وإحصائه والانشغال بتقسيمه على مستحقيه ، ولم يقلل ذلك من صفائه ، أو يؤثر فى كمال إيمانه ، ومعلوم أيضا أن أبا بكر من العشرة المبشرين بالجنة ، ومن ثم لا يكون الصفاء الذى يدعوا إليه الهجويرى وغيره ، مقصورا

على أبى بكر وحده ، بل ذلك عام فى جميع الصحابة رضوان الله عليهم ، فدعوى تخصيص أبى بكر بأن يكون أسوة للصوفية فى صفائهم وتخليهم عن الدنيا تفتقر إلى الدليل الواضح .

ومن ثم حاول بعض الصوفية أن يبحث عن نسبة أخرى ، تجمع معنى الصدق فى أوصاف الظاهر والباطن ، لأن النسبة إلى الصوف نسبة إلى الظاهر والنسبة إلى الصفاء نسبة إلى الباطن ، فرأى بعضهم فقر أهل الصفة ، وصدق حالهم وانقطاعهم إلى الله ، فنسب التصوف إليهم ، كتبرير معقول ، يجمع معانى الإيمان الظاهرة والباطنة ، فهل نسبة التصوف إلى أهل الصفة يعتبر أصلا مقبولا ؟!

هل نسبة التصوف إلى أهل الصفة يعتبر أصلا مقبولا ؟!

من ناحية اللغة لا يصح ، فلو رد التصوف إلى أهل الصفة لقيل صُفِّى ، أما من ناحية التشبه بأفعال أهل الصفة ، والنظر والمقارنة بين طريقة الصوفية ومذهبهم وتجاربهم بحال أهل الصفة ، فالأمر يتطلب الكشف عن حال أهل الصفة أولا ، من خلال استقصاء شامل الأصول القرآنية والنبوية .

فالصفة التى ينسب إليها أهل الصفة من الصحابة رضوان اللّه عليهم ، كانت فى مؤخرة مسجد النبى ، فى شمال المسجد النبوى بالمدينة المنورة ، وقد ورد ذكرها فى حديث أنس بن مالك وفيه :

" .. ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فَادْعُ لِي فُلانًا وَفُلانًا وَفُلانًا وَمَنْ لَقِيتَ ، وَسَمَّى رِجَالا ، قَالَ : فَدَعَوْتُ مَنْ سَمَّى وَمَنْ لَقِيتُ ، قَالَ جعد بن دينار راوى الحديث عن أنس : قُلْتُ لأَنَسٍ : عَدَدَ كَمْ كَانُوا ؟ قَالَ : زُهَاءَ ثَلاثِ مِائَةٍ وَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ : يَا أَنَسُ هَاتِ التَّوْرَ ، قَالَ : فَدَخَلُوا حَتَّى امْتَلأَتِ الصُّفَّةُ وَالْحُجْرَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : لِيَتَحَلَّقْ عَشَرَةٌ عَشَرَةٌ ، وَلْيَأْكُلْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِمَّا يَلِيهِ ، قَالَ : فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ، فَخَرَجَتْ طَائِفَةٌ ، وَدَخَلَتْ طَائِفَةٌ حَتَّى أَكَلُوا كُلُّهُمْ ، فَقَالَ لِي يَا أَنَسُ : ارْفَعْ فَرَفَعْتُ ، فَمَا أَدْرِي حِينَ وَضَعْتُ كَانَ أَكْثَرَ ، أَمْ حِينَ رَفَعْتُ ؟ "[1] .

وكانت الصفة متسعا لمن يأوى إليها من المهاجرين الجدد ، المتتابعين على البيئة الجديدة فى دار الهجرة ، فهى تشبه دار الضيافة ، حيث يقيم النازل حتى

---

1. أخرجه مسلم فى كتاب النكاح (1428) 2/1056 .

الأسرية ، ولما انتشر الإسلام فى العهد المدنى ، كثر عدد المهاجرين ، وتوالى تزاحمهم على المدينة شيئا فشيئا سواء كانوا فقراء أو أغنياء متأهلين أو عزاب ، فكان من لم يتيسر له مكان يأوى إليه ، يأوى إلى تلك الصفة التى فى المسجد ، ولذلك لم يكن جميع أهل الصفة يجتمعون فى وقت واحد ، بل منهم من يتأهل أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسر له ، ثم يجئ أناس بعد أناس فكانوا تارة يكثرون وتارة يقلون [1] .

فإذا طال مكث أحدهم ، فهو والوافدون عليه ضيوف على الإسلام والمسلمين ، يأكلون من الصدقة أو يلبسون ، يشاركون النبى فى أغلب الأحيان فى الهدايا التى تبعث إليه ، وقد ورد ذلك منصوصا عليه فى الأصول القرآنية والنبوية فمن ذلك :

1- ما ثبت عن أبى هريرة أنه قال : " وأهل الصفة أضياف الإسلام ، لا يأوون إلى أهل ولا مال ، ولا على أحد " [2] .

2- أنهم عاصروا فترة زمنية فى المدينة توالت الوفود فيها على رسول الله فازدحمت بأهلها ، وأثر العجز الاقتصادى فى المدينة على الجميع ، ومن البديهى أن أهل الصفة هم الأكثر من غيرهم معاناة فهم أضياف الإسلام ، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد ، قال

أبو هريرة وهو واحد منهم : أالله الذي لا إله إلا هو ، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع

1. مجموع فتاوى ابن تيمية 11/40 ، بتصرف .
2. جزء من حديث أخرجه الإمام لبخارى فى كتاب الرقاق (6452)11/286 .

وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع [1] .

4- أنهم على الرغم من مرارة ما يعانون من شظف العيش إلا أنهم ، كانوا يتعففون السؤال ، فمن حديث أبى هريرة قال : " ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه ، فمر أبو بكر ، فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني ، فمر ولم يفعل ثم مر بي عمر ، فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني ، فمر فلم يفعل ، ثم مر بي أبو القاسم ، فتبسم حين رآني ، وعرف ما في نفسي وما في وجهي " [2] .

5- أن النبى كان يشركهم الطعام ، على الرغم من كثرتهم ، وعلى نحو ما ذكره أبو هريرة : " إذا أتته صدقة ، بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئا وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها " [3] .

6- أنهم سبب فى إكرام الله للنبي وبعض أصحابة ، بخوارق العادات وإظهار المعجزات

والكرامات ، فى تكثير القليل من المشروبات والمطعومات فمن حديث أبى هريرة أيضا ، أن النبى أمره بدعوتهم على شراب قليل من اللبن ، ربما يكفى اثنين ، فقال له : " أبا هر ، قلت : لبيك يا رسول الله قال : الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي ، فساءني ذلك ، فقلت : وما هذا اللبن في أهل الصفة ؟ كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فإذا

1. جزء من الحديث السابق 1/1ص286 .
2. جزء من الحديث السابق .
3. جزء من الحديث السابق .

جاء أمرني ، فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد ، فأتيتهم فدعوتهم ، فأقبلوا ، فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت ، قال : يا أبا هر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : خذ فأعطهم ، قال : فأخذت القدح ، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يرد علي القدح ، فأعطيه الرجل ، فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح ، فيشرب حتى يروى ، ثم يرد علي القدح ، حتى انتهيت إلى النبي ، وقد روي القوم كلهم ، فأخذ القدح ، فوضعه على يده ، فنظر إلي فتبسم ، فقال : أبا هر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : بقيت أنا وأنت

قلت : صدقت يا رسول الله ، قال : اقعد فاشرب فقعدت فشربت ، فقال : اشرب فشربت ، فما زال يقول اشرب حتى قلت : لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكا ، قال : فأرني ، فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة " [1] .

ومن حديث عبد الرحمن بن أبي بكر قال : " إن أصحاب الصفة كانوا أناسا فقراء ، وإن النبي قال : من كان عنده طعام اثنين ، فليذهب بثالث وإن أربع فخامس أو سادس ، وأن أبا بكر جاء بثلاثة ، وإنه تعشى عند النبي ، ثم لبث حيث صُلِّيَتِ العشاء ، فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله ، قالت له امرأته : وما حبسك عن أضيافك قال : أوما عشيتيهم ، قالت : أبوا حتى تجيء ، قد عرضوا فأبوا ، قال عبد الرحمن : فذهبت أنا فاختبأت

---

1. جزء من الحديث السابق .

فقال : يا غنثر فجدع وسب ، وقال : كلوا لا هنيئا ، فقال : والله لا أطعمه أبدا ، وايم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها ، حتى شبعوا ، وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك ، فنظر إليها أبو بكر ، فإذا هي كما هي أو أكثر منها ، فقال لامرأته : يا أخت بني فراس ما هذا ؟ قالت : لا وقرة عيني لهي

الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات ، فأكل منها أبو بكر وقال : " إنما كان ذلك من الشيطان يعني يمينه ، ثم أكل منها لقمة ، ثم حملها إلى النبي ، فأصبحت عنده ، وكان بيننا وبين قوم عقد ، فمضى الأجل ففرقنا اثنا عشر رجلا ، مع كل رجل منهم أناس الله أعلم كم مع كل رجل فأكلوا منها أجمعون " [1] .

7- أن الفقر الذى لزم أهل الصفة ، كان فقرا اضطراريا من أمور القدر على سبيل الابتلاء ، لمن هاجر إلى رسول الله ، وآثره على أهله وعشيرته ، ولم يكن باختيارهم أو رغبتهم فى أن يكونوا على تلك الحالة ، فهم كانوا يكتسبون عند إمكان الاكتساب ، ولذلك كان يراعى ضعف قوتهم وقلة حالهتم ، فيجيز من يقف أثناء صلاة الجماعة ، لينادى على النساء وهن خلف الرجال فى الصفوف ، ألا يرفعن رؤوسهن حتى يستوى الرجال جلوسا ، فربما تنكشف عورة أحدهم لقصر ملبسه ، فمن حديث أبى هريرة قال : " لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ ، مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ ، إِمَّا إِزَارٌ ، وَإِمَّا كِساءٌ ، قَدْ رَبَطوا فِي أَعْنَاقِهِمْ ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْنِ ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ

1. أخرجه البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة (602)

2/90 .
الْكَعْبَيْنِ فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةَ أَنْ ترَى عَوْرَتُهُ " [1] .

وقال سهل بن سعد الساعدى فى وصفه أهل الصفة : " كان رجال يصلون مع النبي عاقدي أزرهم على أعناقهم كهيئة الصبيان ، ويقال : للنساء لا ترفعن رءوسكن ، حتى يستوي الرجال جلوسا " [2] .

هذا وصف أهل الصفة كما ورد فى صحيح السنة ، قوم ألجأهم الإيمان بالله ورسوله إلى أن يتركوا رغد العيش فى أوطانهم ، ويهاجروا إلى المدينة ويصبروا على الفقر فيها ، بغية مرافقة النبى فى الدنيا والآخرة ، ولم تكن لهم رغبة فى أن يكونوا عالة على أحد ، أو يتواكلوا فيتفرغوا للعبادة تاركين للكسب والعمل مع تيسره ، وهذه الصورة لا تتفق مع وصفهم عند مؤرخى الصوفية ، فقد ذكر الهجويرى أن أهل الصفة ، قوم صرفوا وجوههم إلى ربهم ، متعبدين ومهتمين بأمر آخرتهم ، عكفوا على العبادة ورياضة النفس ، والتجرد عن أعراض الدنيا ، فانقطعوا فى المسجد يأكلون من مال المسلمين ، ويكرمون من أجل صلاحهم وتقواهم [3] .

بل إنه حكى الإجماع على ذلك ، فقال فى باب الكشف عن أهل الصفة : (اعلم أن

المسلمين جميعا ، قد اتفقوا على أن عددا من الصحابة ، لجأوا إلى

---

1. أخرجه البخارى فىكتاب الصلاة (442) 1/638 .
2. أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة (362) 1/563 ، ومسلم (441) 1/326 .
3. كشف المحجوب ص101 ، وانظر التصوف عند العرب لجبور عبد النور ، طبعة بيروت سنة 1938م ، ص75 .

مسجد الرسول ، واشتغلوا بالعبادة تاركين الدنيا ، زاهدين فى البحث عن وسائل العيش)[1] ، واحتج لهم بأصل قرآنى ، يوحى باللوم على النبى لإنكاره عليهم الانقطاع للعبادة ، فقال : " ولقد عاتب اللَّه رسوله من أجلهم حين قال فى سورة الأنعام : وَلا تَطرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ [الأنعام/52])[2] .

ويقول غيره : " وهم الذين نزلت فيهم الآية الثامنة والعشرون من سورة الكهف : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا [الكهف/28] "[3] .

وهذا الكلام لا يطابق حقيقة الأصول القرآنية والنبوية ، ولا يشهد للصوفية فى ردهم التصوف لأهل الصفة ، وبرهان ذلك هو أن آيتى الأنعام والكهف نزلتا بمكة ، فالسورتان مكيتان ، ومعلوم مما أورده الهجويرى وغيره أن أهل الصفة لم يظهروا إلا فى المدينة المنورة ، بعد وجود الصفة ، وبناء المسجد النبوى ، فكيف عاتب اللّه نبيه فى مكة على قوم لم يظهروا إلا فى المدينة ؟

أما الأصل الذى يمكن أن يرد إليه وصف أهل الصفة من القرآن ، هو قوله

---

1. السابق ص101 .
2. السابق ص101.
3. مدخل إلى التصوف الإسلامى للدكتور أبو الوفا التفتازانى ، ص54 .

تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّه لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّه بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران/273] ، قال عبد اللّه بن عباس ﷺ وشاركه مجاهد ، ومحمد بن كعب القرطبى : " هم أصحاب الصفة الفقراء " [1] .

والآية واضحة الدلالة فى كونهم يعجزون عن الكسب ، لا يستطيعون ضربا فى الأرض ، ومعلوم أن العجز إما لعلة فيهم ، من مرض

أو غيره أو لانعدام أسباب العمل التى يتكسبون منها ، بسبب ازدحام المدينة بالمهاجرين على أهلها ، وعجز الموارد فى الدولة الإسلامية وقتها ، وقد وصفهم اللَّه بالتعفف وعدم السؤال البتة ، لا سؤال إلحاح ، ولا غير إلحاح ، كما ذهب لذلك جمهور المفسرين [2] .

وقد سبق من حديث أبى هريرة ، فى تعففه عن السؤال مع شدة الجوع الذى كابده ، والحجر الذى ربطه على بطنه ، وإظهار نفسه لأبى بكر وعمر بمظهر السائل عن الفقه فى الدين ، وكذلك من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر عندما أبى ضيوف أبى بكر من أهل الصفة أن يأكلوا إلا بحضور صاحب الدار من شدة تعففهم ، كل ذلك يتفق مع ما ورد فى آية البقرة ، ويشهد لها كما أن أهل الصفة ،لم يمكثواعلى حالهم بعد وجود الخير ،وانفتاح أبوابه فأغلبهم جاهد وقاتل ، وتولى الإمرة ، وتفاعل مع الحياة على أنها وسيلته إلى الآخرة وعلى النحو المرضى للَّه عز وجل ، ولو كان فى مكثهم على حالهم

---

1. فتح القدير 1/292 ، 293 .
2. السابق 1/293 .

خير ما بدلوه ، وللزموا المسجد النبوى لا يفارقونه إلا بالموت .

وكما استدل السراج الطوسى بتعسف ،

لنسبة التصوف إلى الصوف على أنه ملبس الأنبياء ودأب الأولياء ، ليظهر التوافق بين الصوفية وسلوك الأنبياء فى التزام الصوف دون غيره ، سلك الهجويرى مسلكه ، فروى فى أهل الصفة حديثا لا أصل له ، عن ابن عباس ، فيه دعوة إلى تفضيل البقاء على حال أهل الصفة ، وألا يرضى الصوفى عنه بديلا ، لأن ذلك أصل التصوف فقال :

" روى عن ابن عباس ، أن النبى وقف على أهل الصفة ، فرأى فقرهم وجهدهم ، وطيب قلوبهم ، فقال : أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه ، راضيا بما هو فيه ، فإنه من رفقائى فى الجنة " [1] .

فقول الهجويرى : فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه ، راضيا بما هو فيه ، إنما يعبر عن الرغبة فى إيجاد أصل مقبول للتصوف برده إلى أهل الصفة ، وقد سبق فى وصف أبى هريرة لأهل الصفة ، أنهم إنما كانوا أضياف الإسلام ، والضيف له إكرام لا يتعدى وقتا معلوما ، فإن تخطاه أصبح عالة على غيره ، وعبئا ثقيلا على المجتمع ، وكيف يرضى رسول الله أن يكون أهل الصفة ، عالة على غيرهم ، ويقرهم على ذلك ، وهو القائل : " لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ، ثُمَّ يَغْدُوَ إِلَى الْجَبَلِ ،

فَيَحْتَطِبَ فَيَبِيعَ ، فَيَأْكُلَ وَيَتَصَدَّقَ

1. كشف المحجوب ص101 ، وقد بذلت جهدا كبيرا فى تتبع هذا الحديث فى كتب السنة فلم أجده سواء فى الأحاديث المتصلة أو المنقطعة عن ابن عباس أو غيره .

خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ " [1] .

وقد ورد فى الحض على الكسب وتحريم المسألة لغير حاجة ، أحاديث كثيرة يضيق الكلام عن ذكرها ، تدل فى جملتها على منافاة هذا الحديث ومعارضته ومن ثم فإن أهل الصفة لو وجدوا من أسباب الحياة ما يغنيهم كسائر الصحابة ما كانوا أهل الصفة ، فهم لم يخيروا فاختاروا ، ولكن اضطروا فسلموا وصاروا مؤمنين بالقدر ، وعلى ذلك فإن قياس حال الصوفية على حال أهل الصفة قياس مع الفارق ، ولذا لجأ بعضهم إلى نسبة أخرى فنسب التصوف إلى الصف الأول .

. رد التصوف إلى الصف الأول ومناقشته :

يقول أبو بكر الكلاباذى : (وقال قوم إنما سموا صوفية ، لأنهم فى الصف الأول بين يدى اللّه عز وجل ، بارتفاع هممهم إليه ، وإقبالهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه) [2] .

من جهة اللغة لا يصح نسبة التصوف إلى الصف الأول ، لأنه لو صح لقيل : صَفِّى كما لا

يصح من جهة الوصف ، فالصوفية ليس كما ذكر الكلاباذى أنهم بين يدى اللّه عز وجل فى الصف الأول هممهم مرتفعة إليه ، وإقبالهم متزايد عليه واقفون بسرائرهم بين يديه ، بل الواقع يخالف ذلك ، وأدلة البحث تفنده ، فالسراج الطوسى صاحب أقدم المراجع الصوفية ، وأكبرها وأوثقها

1. أخرجه البخارى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فى كتاب الزكاة (1386) 3/295.
2. التعرف ص 29 .

وأغزرها مادة ، وأنقاها جوهرا ولفظا ، ومن مادته الخصبة اقتبس كافة من أرخ للتصوف [1] ، نجد أنه يصرح بلا لبس أو غموض ، أن الصوفية ليس من آدابهم المحافظة على الصف الأول ، كما هو مذكور عند الكلاباذى ، فيقول السراج الطوسى فى وصف آدابهم فى الصلاة :

(ومن آدابهم أيضا أنهم يكرهون الإمامة ، والصلاة فى الصف الأول ، بمكة وغيرها ويكرهون التطويل ، أما الإمامة فلو أن أحدهم يحفظ القرآن ، فإنهم يختارون الصلاة خلف من يحسن أن يقرأ الحمد وسورة أخرى ، وأما ترك الصلاة فى الصف الأول ، فإنهم يريدون بذلك ألا يزاحموا الناس ويضيقوا عليهم ، لأن الناس يزدحمون ويطلبون الصف الأول) [2] .

والعلة فى ذلك – والتى لم يصرح بها - أن

الناس إنما يزدحمون على الصف الأول ، بدافع الرغبة فى تحصيل الأجر الذى أعده اللَّه للمصلين ، عملا بقوله ﷺ: " لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا "[3] وقد تقدم أن أغلب الصوفية فى عبادتهم أحرار من التجارة وانتظار العوض والبديل ، وقد سبق قول أبى يزيد البسطامى (ت:261 هـ) : (الجنة لا خطر لها عند أهل المحبة وأهل المحبة محجوبون بمحبتهم)[1] ، وهذا الكلام شاع بين الصوفية قبل أبى نصر السراج الطوسى (ت:378هـ) بقرنين تقريبا ، عندما اشتهر بينهم قول رابعة العدوية ، من نساء الصوفية (ت:185هـ) : (ما عبدتك خوفا من نارك ، ولا طمعا فى جنتك ، ولكن حبا لذاتك)[2] .

وقد ثبت فى السنة ، أن رسول اللَّه ﷺ بين الغايه من محصول أفعاله ، وأنها تدور حول طلب الجنة ، والنجاة من عذاب النار ، دل

---

1. انظر مقدمة اللمع للدكتور عبد الحليم محمود ص 10 .
2. اللمع ص 208 .
3. أخرجه البخارى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فى كتاب الأذان (580) 2/68.

على ذلك ما ذكره مُعَاذ بن رِفَاعَة الأَنْصَارِي ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ ، يُقَالُ لَهُ : سُلَيْمٌ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّه ، إِنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ يَأْتِينَا بَعْدَمَا نَنَامُ وَنَكُونُ فِي أَعْمَالِنَا بِالنَّهَارِ ، فَيُنَادِي بِالصَّلاةِ ، فَنَخْرُجُ إِلَيْهِ فَيُطَوِّلُ عَلَيْنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه : يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ ، لا تَكُنْ فَتَّانًا ، إِمَّا أَنْ تُصَلِّيَ مَعِي ، وَإِمَّا أَنْ تُخَفِّفَ عَلَى قَوْمِكَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا سُلَيْمُ ، مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ ؟ قَالَ : إِنِّي أَسْأَلُ اللَّه الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِهِ مِنَ النَّارِ ، وَاللَّه مَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتكَ ، وَلا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : وَهَلْ تَصِيرُ دَنْدَنَتي وَدَنْدَنَةُ مُعَاذٍ ، إلا أَنْ نَسْأَلَ اللَّه الْجَنّةَ وَنَعُوذَ بِهِ مِنَ النَّارِ " [3] .

وإذا كان هذا حال الصوفية أنهم لا يطمعون فى ثواب الصف الأول ، فكيف

---

1. طبقات الصوفية ص489 ، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص161، 184 .
2. صفة الصفوة ، 2/ 249 .
3. أخرجه ابن ماجه فى كتاب الإقامة (910) ، وقال الشيخ الألبانى : صحيح 1/295 وأحمد فى المسند (20176) واللفظ له .

يقال : إنهم سموا صوفية ، لأنهم فى الصف الأول بين يدى اللَّه عز وجل ، إن هذه النسبة يمكن أن تصح إذا بلغ من حرص الصوفى مثلا ، أن يهادى به بين الرجلين حتى يقام فى

الصف ، كما هو شأن الصحابة ، أوكما ذكر عَبْدِ اللَّه بن مسعود : " وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ " [1] ، وقد كان رسول اللّه يسأل عن المتخلفين عن الصلاة فى جماعة ، وكيف تركوا الصف الأول دون شهوده ، فقال أُبَي بن كَعْبٍ :" صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّه يَوْمًا الصُّبْحَ ، فَقَالَ : أَشَاهِدٌ فُلانٌ ؟ قَالُوا : لا ، قَالَ : أَشَاهِدٌ فُلانٌ ؟ قَالُوا : لا ، قَالَ : إِنَّ هَاتَيْنِ الصَّلاتَيْنِ أَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَيْتُمُوهُمَا وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الرُّكَبِ ، وَإِنَّ الصَّفَّ الأَوَّلَ عَلَى مِثْلِ صَفِّ الْمَلائِكَةِ ، وَلَوْ عَلِمْتُمْ مَا فَضِيلَتُهُ لابْتَدَرْتُمُوهُ " [2] .

فكيف يتفق هذا مع قول السراج الطوسى : (ومن آدابهم ، أنهم يكرهون الصلاة فى الصف الأول بمكة وغيرها) ؟ ، أو يصح قول أبى بكر الكلاباذى فى تبرير بعضهم لنسبة التصوف : (إنما سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى اللّه عز وجل) .

فالمسألة فى رد التصوف إلى الصوف أو الصفاء والصفوة أو أهل الصفة أو الصف الأول ، تفتقر إلى وجه صريح ، وتبرير صحيح يعتمد على الأصول

---

1. أخرجه مسلم فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة

(654) 1/453 .
2. أخرجه النسائى فى كتاب الإمامة (843) وحسنه الألبانى 2/104 .
القرآنية والنبوية ، ومن ثم لجأ كثير من المحققين إلى جعل النسبة عَلَما بلا اشتقاق معروف ، واعتبروه اسما بلا وصف أو علما على ذات التصوف ، دون البحث عن مضمون الإسم أو محتواه ، وهؤلاء عندى أقرب إلى الصواب فالتصوف لا أصل له فى الأصول القرآنية والنبوية ، يمكن أن يدعو إليه أو يرد عليه ، يقول القشيرى (ت:465هـ) : (ثم هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل صوفى وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف ، وللجماعة متصوفة) [1] ، ثم علل ذلك بأنه لا يشهد للتسمية من حيث العربية ، قياس ولا اشتقاق فالأظهر أنه كاللقب ، فالذين قالوا : إنه من الصوف ولبسه فذلك وجه ، ولكنهم لا يختصون بلبس الصوف ، والذين قالوا : يرد إلى الصفة التى فى مسجد رسول اللَّه ، فالنسبة إلى الصفة لا تجئ على نحو الصوفى ، ومن قال : إنه من الصف الأول بعيد أيضا فى مقتضى اللغة [2] .

وقد أفرد السراج الطوسى بابا سماه : (الرد على من زعم أن الصوفية قوم جهلة ، وليس لعلم التصوف دلالة من الكتاب والأثر) [3] .

ولكنه لم يورد دليلا واحدا فى مستوى أدلة أصحاب الحديث والفقه وعلوم القرآن والتوحيد ، فى استدلالهم على نسبة علمهم بالأصول القرآنية أو النبوية

---

1. الرسالة القشيرية 2/550 .
2. السابق 2/550 ، 551 .
3. اللمع ص34 .

بل ما ذكره لا يميز الصوفية بشئ ينفردون به عن أصحاب الطوائف الأخرى صحيح ، كما ذكر السراج الطوسي ، أنه لا خلاف بين أئمة المسلمين أن اللّه تبارك وتعالى ، ذكر فى كتابه الصادقين والصادقات ، والقانتين والقانتات والخاشعين والخاشعات ، والموقنين والمخلصين والخائفين ، والراجين والوجلين والعابدين والصابرين والراضين ، والمتوكلين والمخبتين ، والأولياء والمتقين والمصطفين والأبرار والمقربين [1] .

ولكن ذلك عام فى المسلمين أصحاب الدرجات العليا من التقوى ، والقول بأن الصوفية ينفردون بهذه الأوصاف دون غيرهم ، تنقيص لشأن الآخرين فهذه الأوصاف أولى بها الخلص من المحدثين والفقهاء ، وأهل التوحيد والتفسير وعلوم اللغة والقرآن ، وغير ذلك من أصناف المسلمين القائمين على خدمة دينهم الداعين إلى اللّه عز وجل ، أو على الأقل يشاركون الصوفية فى هذه الصفات والخلاق

الكريمة .

1. السابق ص34 .